

وقيمة بالمغرب

بقلم: محمد بن الهيثم الكتاف

الكتاب العربي

أولا - على تسجيل جميع ما يوجد في جميع مكتبات المساجد والزوايا في مدن المغرب وقراه ، وفي الجبال والصحاري ، وفي القصور الملكية . ومكتبات أهل العلم وأبناء الأسر العلمية ، وهو عمل انا كنا قد شرعنا فيه منذ الاستقلال ، وحققنا فيه نتائج مهمة لا يستهان بها ، فإنه لا يزال أمامنا لاتمامه زمن طويل لاسباب عديدة لا مجال للحديث عنها الآن .

ويتوقف - ثانيا - على معرفة المخطوطات المغربية المتفرقة في مختلف مكتبات العالم وخصوصا في أوربا وأميركا ، وجميع البلاد العربية والاسلامية في افريقيا وآسيا سواء في المكتبات المنظمة أو غير المنظمة والتي قد تتوفر بمخطوطات مغربية لم يبق لها أثر بالمغرب ، وهو أمر لا زلنا لم نشرع فيه لحد الآن .

ويتوقف - ثالثا - على استقصاء ما ورد في كتب التراجم ومختلف المراجع والمصادر من أسماء المؤلفات المغربية .

وسيبقى عملنا - بعد ذلك كله - ناقصا نقصا كبيرا ، نظرا الى أن أصحاب التراجم لا يكادون يهتمون بإحصاء المؤلفات من يترجمون لهم ، وأنهم لا يترجمون لجميع المؤلفين .

وأن كثيرا من المؤلفين المغاربة غادروا المغرب الى مختلف البلاد شرقا وغربا ، ولم يصل الى المغرب من أخبارهم وأخبار مؤلفاتهم الا القليل .

الحاجة الى فهرس للمؤلفات المغربية

وإذا لاحظنا أن أهم فهرس جامع للكتب العربية ،

الصعوبات التي تكنف انموضوع

ليس الحديث الذي طلبه منى المكنب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي (حول الكتاب المغربي وقيمه) بالامر السهل الهين ، ذلك أن الكتاب المغربي له تاريخ طويل يستغرق أزيد من ألف سنة ، مر فيها بمراحل مختلفة ، من نشأة ، ونمو ، واكتمال ، وضعف وانحطاط وتخلف ، وانبعاث ، تبعا للعوامل المختلفة التي خضع لها .

ولكي يكون الحديث عن الكتاب المغربي حديثا علميا موضوعيا ، يجب :

أولا وقبل كل شيء ، أن يكون لدينا إحصاء دقيق شامل لجميع ما أنتجه المغاربة منذ دخولهم في الاسلام الى اليوم ودراسته ثانيا دراسة علمية نقدية مع مقارنته ثالثا بما أنتجه غير المغاربة - من عرب وغيرهم - في موضوعه . قبل عصره الذي كتب فيه وفي نفس العصر ، ويعدده .

مع التعرف زايغا بتدقيق على الدور الذي قام به في ميدان نشر المعرفة عموما ، والثقافة العربية والاسلامية في المغرب أولا ، ثم في مختلف المناطق الواقعة جنوب المغرب ثانيا ، ومقدار مساهمته في ذلك الى جانب الكتب العربية الاخرى في مختلف الاقطار ، وخصوصا المجاورة منها ، أو التي كانت لها صلات ثقافية وثيقة بالمغرب ، وذلك أمر ما نزال بعيدين عنه بعدا شاسعا .

فأما الاحصاء الدقيق الشامل ، فإنه يتوقف :

وهو كتاب (كشف الظنون) لم يذكر من مؤلفات المغاربة الا النزر اليسير ، علمنا مسيس حاجة المكتبة العربية عموما والمكتبة المغربية بوجه خاص الى فهرس جامع للمؤلفات المغربية يملا هذا الفراغ .

نكبات المكتبة العربية عموما ، والمغربية خصوصا

اضف الى ذلك ، ان المكتبة العربية وخصوصا في الغرب الاسلامي . على اختلاف أقطاره ومناطقه ، قد تعرضت فترات طويلة ، للنهب والاختلاس ، بل والاحراق والاتلاف على يد الصليبيين والمستعمرين : الاسبانيين ، والبرتغاليين ، والفرنسيين ، والايطاليين ، في الاندلس ، وصقلية ، وتونس وليبيا ، والجزائر ، وافريقيا الغربية ، بل وفي المغرب الأقصى نفسه !

ويمكن تقدير فداحة الخسارة الفظيعة التي أصيبت بها المكتبة المغربية من جراء احتلال مدينة سبتة الغادر. انا نحن استحضرننا المركز العلمي الممتاز الذي كان لهذه المدينة الشهيدة وما كانت تزخر به من مكنتات عمومية وخصوصية ، قال عنها محمد بن القاسم الانصاري السبتي في (اختصار كتاب الاخبار ، عما كان بسببته من سنى الآثار) :

انها اثنتان وستون خزانة في الزمن القديم قال : وكان منها في زماننا - يعنى اوائل القرن التاسع للهجرة اوائل الخامس عشر للميلاد - سبع عشرة خزانة ، تسع بدور الفقهاء ، والصدور وثمان موقوفة على طلاب العلم ، كخزانة ابي الحسن الشاربي ذات الاصول العتيقة ، والمؤلفات المغربية . واعظمها احدي خزائني الجامع العتيق . قال : وهي في الكثرة بحيث لم يشذ منها فن من الفنون ، ولا نوع من المعارف اصلا . مع تعدد مصنقات ذلك الفن وكثرة دواوينه ، ويقاى هذه الخزائن مفترق ، منها بالمدسة الجديدة خزائتان ، وبمسجد القفال خزانة واحدة وبمسجد مقبرة زكلوا اخرى وهو اكبر مسجد بسببته بعد المسجد الاعظم منها .. وخزانة اخرى بجامع الررض الاسفل . (I)

وكم ضاع من مؤلفاتنا في شواطئنا الشمالية والغربية التي استمرت سنين طويلة عرضته للاعتداء الصليبي وخصوصا من قبل البرتغاليين والاسبانيين .

وكم ضاع في الساقية الحمراء وموريطانيا والصحراء الشرقية التي كانت حدودها الى وقت قريب تتصل بحدود ليبيا .

وكم اختلس سفراء اوربا وعلماؤها واطباؤها وتجارها من نفائس الكتب ونوايرها التي لا تقدر بمال .

ومن ذلك ما ذكره دوفيردان Gaston Deverdun في كتابه عن مراكش ان ايتيان هوير Etienne Hubert الفرنسي الذي قضى بمراكش سنة 1598 م 1000 - 1007 م تعمق فيها في اللغة العربية حتى صار من كبار علمائها . واكتفى بمفادرة هذه المدينة ممثلا علما ، ومثقلا جدا بالمخطوطات العربية التي فاقت ما حمله من الاموال والنفائس الثمينة (ص 436)

مخطوطات الاسبانكوريال

كما لا تخفى قصة الثلاثة آلاف مجلد التي ارسلها السلطان زيدان السعدي سنة 1020 هـ 1612 م من مرسى مدينة اسفى الى مرسى مدينة اكادير في ثلاث سفن فرنسية ، على يد القنصل الفرنسي كاستيلان ، فخان البحارة الفرنسيون اصحاب السفن الامانة ، وفروا بالكتب عبر البوغاز ، ولكن الاسبانيين استولوا على الكتب في عرض البحر . ووضعوها في دير الاسكوربال الشهير بالقرب من مدريد . وفي سنة 1081 هـ 1671 م انقضت صاعقة على دير الاسكوربال ، فأحرقت اكثر من الفى مجلد من مخطوطاته العربية .

ومنذ استيلاء الاسبانيين على هذه الكتب وملوك المغرب متمسكون بالمطالبة بارجاعها الى المغرب تمسكهم بالمطالبة بارجاع سبتة ومليلية ، وكان ذلك من المهمات التي تسند الى سفراء المغرب لدى البلاط الاسباني .

فقد ذكر السفير الانجليزي جون هاريسون في تقريره ان السلطان زيدان حمله رسالتين : اولهما مؤرخة بـ 14 يناير 1615 م موجهة الى الحكومة العامة لاراضي الواطنة يطلب فيها من هذه الحكومة ان توسط ملك فرنسا لويس الثالث عشر في ان يعمل على تحرير مكنته .

وثانيتها كلف السفير بتسليمها بنفسه الى الملك الفرنسي يدا بيد ، يطلب منه فيها ان يتدخل لدى فيليب

(I) ص. انشر ليفي بروفنصال ، و ص 82-83 مجلة تطوان العددان 3-4 سنة 1958-1959 .

والثبوت من مضامينها ، وأوعز اليه أن يسهل مهمتهم (4) وفي نفس هذا القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر الميلادى ، أنشأ بارتيلمى Barthélemy فى منزله ببياريس خزانة كتب نادرة الوجود بما اشتملت عليه من مخطوطات عربية وأفرة اشترى له أكثرها بعض السياح الاجانب من بلاد الشام واليمن والمغرب الاقصى (4)

وأما بعد الاحتلال الاجنبى للمغرب

فقد تهافت المستعمرون على اختلاس المخطوطات والاعتداء عليها
ففى الخزانة العامة بالرباط قائمة بأسماء المخطوطات التى ضاعت فى فترة الاحتلال .

وأخبرنى صديقى الامام محمد البشير الابراهيمى مد الله فى عمره ، عندما كنت ضيفه بتلمسان فى ربيع سنة 1936م أن المستعرب بيل كان يعرض فى (المدرسة) بتلمسان مجموعة من المخطوطات العربية فى الرياضيات والفلك ونحو ذلك ، قال : وهى مما اختلسه من مكتبة الترويين عندما كان يشرف على تسجيل كتبها فيما بين 1914 - 1916 م !

كما تحدث زميلنا الاستاذ محمد العابد الفاسى فى رسالته (الخزانة العلمية بالمغرب) عن بعض نفائس المخطوطات التى كانت بمكتبة الترويين ولم يبق لها أثر ، ومنها ما بقي الى ما بعد الحماية وسجله بيل فى القائمة المطبوعة بفاس لكتب المكتبة مثل جزء (نزهة المشتاق) (5)

ويقال ان السنطات الفرنسية استعارته من المكتبة لتعرضه فى معرض فاس ، ولكنها لم ترده ، ويقال انه أرسل الى بارييس .

ونشرت جريدة العلم سنة 1956م رسالة من مراسلها فى الريصانى ذكر فيها ان الجيش الفرنسى ، عندما احتل الريصانى أحرق المكتبة التى كانت بضريح مولاي على اشريف جد الاسرة المالكة .

وأخبرنى الاستاذ الزيتونى محافظ مكتبة المعهد الاسلامى بتارودانت ان الجيش الفرنسى أحرق كذلك مكاتب بالاقليم السوسى عند احتلاله .

وانه لمن المؤسف اشد الاسف ان تبقى المكتبة

الثالث ملك اسبانيا لاعادة الكتب التى استولى عليها القراصنة الاسبان (2) .

ومن ذلك مطالبة الوليد بن زيدان بكتب الاسكوريال من جوان دويرادو سنة 1040 هـ 1631 م كما عند دوفيردان فى كتابه (مراکش) (ص 435) .

ومطالبة سفير المولى محمد بن عبد الله احمد الغزال سنة 1180هـ 1766م من كارلوس الثالث Carlos III (نتيجة الاجتهاد ص 58) .

ومطالبة السفير ابن عثمان المكناسى سنة 1193 هـ 1779م من كارلوس الثالث أيضا فأهداه كتباً عربية للمولى محمد بن عبد الله ، وقال عن كتب الايسكوريال : انها محبسة لا يمكن التصرف فيها ؟ حسبما ورد فى رحلته (الاكسير ، فى افتكاك الاسير) التى بقيت مدة طويلة معتبرة ضائعة ائى أن وفقت للعثور على ثلاث نسخ منها : اولها بمكتبة تامكروت واشترت ثانيها للخزانة العامة بالرباط ، وعثرت على ثالثها بخط المؤلف بمكتبة القصر الملكى بالرباط ، ويقوم مركز البحث العلمى التابع لجامعة محمد الخامس بالرباط بنشرها بتحقيق صديقنا الاستاذ محمد الفاسى عميد الجامعة ، ورئيس اللجنة التنفيذية الليونيسكو .

لوييس الرابع عشر

ونكر الكونت فيليب دى طرازى فى كتاب (خزائن الكتب العربية فى انخافقين) أن لوييس الرابع عشر كلف سفيره دى مونسو De Monceaux سنة 1677هـ 1667م بمهمة خطيرة الى المغرب الاقصى ، وهى ان ينقب تنقيباً دقيقاً عن مخطوطات عربية وفارسية ويونانية وغيرها ويبتاعها له . وقال له : ان من تلك المخطوطات شيئاً كثيراً فى خزائن جامع الترويين بمدينة فاس .

كما كلفه أن يشتري له ألفاً وسبعمائة قطعة من الجلود المغربية الكبيرة الحجم التى يصلح كل جلد منها لتجليد كتابين ضخمين (2) .

وفى سنة 1092هـ 1682م كتب لوييس الرابع عشر الى سانت امان سفيره لدى سلطان المغرب الاقصى : وانه سمع بوجود كميات عظيمة من الكتب الخطية فى فاس ، ولأجل ذلك أوفد اليه بعض اهل المعرفة للاطلاع عليها ،

(2) مجلة تطوان ، العدد التاسع 1964 ص 127 - 128

(4) دى طرازى 2/588 (4) ج 2/613 (5) ص 34,31

المغربية خالية من كتب تسجيل فظائع الاحتلال الاجنبى
فى مختلف اطراف البلاد !

وقد كان من نتائج اعتداءات المستعمرين وعمالهم
على المخطوطات وسرقتها واغتصابها أن صار المخلصون
يتسترون على ما عندهم منها ويخفونها حيث لا تصل
اليها الاعين ، مما عرض كثيرا منها للضياع أيضا !

وانا كان بعض ما نهب واختمس بطرق دنيئة قد
وضع فى بعض المكتبات المنظمة بحيث يسهل أحيانا على
بعض الباحثين الاطلاع عليه والاستفادة منه . رغم ما
يعترض ذلك من صعوبات فى بعض الاحيان ، فان كثيرا
مما اختلس قد انقطع خبره واكتنف مصيره الغموض
والابهام .

ونشير بهذه المناسبة الى وجوب صدور تشريع
يحمى تراثنا الثقافى فيمنع بتاتا خروج أي مخطوط من
المغرب ويعاقب المخالف باقصى العقوبات خصوصا ونحن
نساعد على تصوير كل مخطوط يطلب منا تصويره مهما
كانت أهميته وقيمه ، ولا نثير فى وجه طالبيه أية صعوبة ،
وعندنا من الامكانيات المساعدة على ذلك ما لا يوجد
نظيره فى أي قطر آخر من الاقطار العربية .

هذا عن الاحصاء الدقيق الشامل

وأما الدراسة العلمية النقدية المقارنة

فيكفي لبيان بعد ما بيننا وبين الوصول الى نتائج
قطعية فيها ، أن نشير الى أن الكتاب المغربى قد تناول
- بنسب مختلفة - جل الموضوعات التى تناولها الكتاب
العربى على العموم .

فقد ألف المغاربة فى علوم القرآن ، من رسمه
وضبطه وقراءاته وتجويده وتفسيره ونحو ذلك .

وفى علوم الحديث رواية ودراسة . فالفوا فى
مصطلح الحديث ، وفى السيرة النبوية وفى فقه الحديث ،
وفى أسانيد الكتب والفهارس وتراجم الرجال ، وفى
الجرح والتعديل وغير ذلك ، كما وضعوا الشروح
والتعليق على كثير من كتب الحديث .

والفوا فى أصول الفقه وفروعه ، من عبادات
ومعاملات ، ومواريث ، وتوثيق ، وقضاء ، وفى أحكام
الجهاد ومناسك الحج . وفى النوازل والأحكام . وفى الفقه
المقارن وفى قواعد الاحكام والفروق والحسبة ، والسياسة
الشرعية ، ونحو ذلك .

والفوا فى العقائد والكلام والمنطق والفلسفة والجدل

والمناظرات والرد على المبتدعة .

وفى التصوف والاخلاق ، والمواعظ والمواعد
والانواق والمناقب وفى الاوراد والانكار والدعوات
والتصليات على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى شرح
أسماء اله الحسنى ، وخواصها وفى سر الحرف وفى
السحر وتعمير الرؤيا ، ونحو ذلك .

والفوا فى الترييه والتعليم ، وتقسيم العظم
والسياسة والنظم الادارية وفى نصح الملوك ونقد
الاجتمع .

وفى الحساب والتوقيت والتعديل والجبر والهندسة
والفلك والازياج والتنجيم .

وفى الطب والصيدئة والكيمياء والفلاحة والنبات
والحيوان والبيطرة والطبيعة وعلوم الحرب والبحر .

وفى الجغرافية والرحلات وتاريخ الدول والسيوك
والمدن والاقاليم والقبائل وعلم الانساب .

وفى النحر والصرف واللغة وقواعد الرسم والبلاغة
والمروض والقوافى والموسيقى .

وفى فنون الادب المختلفة ، من امثال وحكم
ومحاضرات ومحامكات ادبية ومقامات وفى الحماسة
والشعر بموضوعاته المختلفة على العموم فصيحاً وشعبياً ،
وفى النثر آتفى ، والالغاز ، والهزل والمجون ، والقصص
والخرافات والاساطير وغير ذلك .

وقل ان يوجد موضوع خاضه الكتاب العربى لم
يساهم فيه الكتاب المغربى كما أنه لا تكاد توجد مشكلة
فكرية او اجتماعية شغلت بال المجتمع الاسلامى لم
يتناولها الكتاب المغربى بالدرس والتمحيص .

والموت الضيق المحدد لهذا الحديث لا يسمح بايراد
أي مثال لشيء مما نكرناه .

ولكننا نورد كلمة موجزة عن مساهمة الكتاب المغربى
فى حركة (التعريب) أى الترجمة عن اللغات الاجنبية
الى العربية .

من المعلوم أن هذه الحركة عرفت عصرها الذهبى
على عهد المأمون العباسى فى الربع الاول من القرن 3م
الثالث الاول من قوم ثم لم تستمر بعد ذلك الا قليلا .

ولعل آخر كتاب ترجم الى العربية فى القرون
الوسطى فى الشرق العربى هو كتاب (شاهنامه)

وكان الفراغ منها في 28 رمضان 1268هـ 16 يوليو 1852م .

وقد قام بالتعريب جماعة من المعربين بالقصر الملكي بفاس بأمر من السلطان محمد الرابع رحمه الله وتحت إشرافه وتوجيهه ، وبعدما أتموا عملهم بصفة نهائية كتب السلطان بنفسه مقدمة للترجمة تلخصها فيما يلي :

« انى لما نظرت فى هذه العلوم الرياضية التى منها الحساب والهيئة والهندسة ... وجدت الوقوف على كنه التحقيق المحض منها لا يكون بمجرد التقليد فيها ... لان النفوس الكاملة لا تطمئن الا باليقين الذى تسلم حججه ، بعد أن تفحص فى بحاره وتخوض لجججه ولما كان ذلك لا بد فيه من الرصد للأجرام العلوية ومشاهدة أمكنتها من أفلاكها ومقادير حركاتها فى الأزمان المختلفة .

وكان الرصد المذكور فى بلادنا وزماننا متعذرا أو متعسرا ، ولكن ما لا يمكن كله ، لا يترك كله ، بحثنا من أجل ذلك كل البحث عن أقرب الارصاد الى زماننا ، فوجدنا كتابا حفيلا عجبيا ، جامعا لكل ما يحتاج اليه الناظر فى هذه الصناعة ، بحيث لا يتوقف على غيره من الأوضاع ... مع ما اعتمده مؤلفه والتزمه من التحرير البالغ غاية الغايات ، والتوقيف على كنه العويصات وكشف الخفيات ، وتأبيد المسائل بالحجج الواضحة اليقينية ، والاشكال الهندسية والامثلة العددية ، والاقيسة الجبرية ، ورد الفروع الى اصولها التى بنيت عليها ، وأخذ الأقوال بدلائلها الخاصة بها ، ومقابلة المذاهب القديمة بعضها ببعض ، ثم أخذ ما وافق العيان والرصد الجديد ، والغناء ما دون ذلك مما تكذبه المشاهدة ويقوم البرهان على بطلانه

— الا أنه باللسان والقلم الأعجميين ، لان مؤلفه رومى من أهل باريز .

وكان من فضل الله علينا أن حضرنا العالية بالله قد احتوت على جماعة وافرة ممن آوتهم ظلال دولتنا الشريفة المنصورة الظاهرة ، ربيناهم فى خدمتنا أحسن تربية ، وصفيناهم لاقترابنا أكمل تصفية ، وأظنناهم

الفردوسي التى عربها الفتح بن على البنداري الاصبهاني سنة 697هـ 1297م (6)

ثم لم تعد هذه الحركة للظهور فى الشرق العربى الا فى النصف الاول من القرن 19م على عهد محمد علي فى مصر ، كما هو معلوم (7)

أما فى المغرب فقد استمرت هذه الحركة الى سنة 1000هـ 1592م وما بعدها .

فقد ذكر المقرئ التلمساني فى (روضة الآس ، العاطرة الانفاس فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراکش وفاس) الذى بقي ضائعا مدة مديدة الى أن وقع العثور عليه أخيرا بالقصر الملكى ونشرته المطبعة الملكية: (أن بعض أكابر الروم قدم على احمد المنصور الذهبى وأتحفه بكتاب فى الطب مكتوب بالقلم الاعجمي ، فعربه العالم الجليل الطبيب أبو القاسم الوزير الغساني من أهل فاس وجعل له خطبة ، وزاد فيه زيادات وسماه (مغنى الطبيب عن كتب أعداء الحبيب) (8) .

وسياتى الكلام على كتاب (العز والمنافع) الذى ترجمه احمد بن قاسم الحجري ترجمان السلطان زيدان السعدي وأولاده .

ونكر دوفيردان Gaston Deverdun فى كتابه (مراکش) أن أنتوان دوسانت مارى الدومينكانى الارلندى ، الذى كان أسيرا بمراكش ، اشتغل مدة ثمان سنوات بأمر من زيدان بن المنصور بترجمة الكتب اللاتينية التى كانت عند زيدان الى اللغة القشتالية ، وعنهما تترجم الى اللغة العربية (9)

وأهم عمل مغربى وصلنا فى ميدان التعريب ، هو كتاب (انجمع المقرب النافع العربى) الذى عثرنا عليه بمكتبة القصر الملكى بالرباط ، وهو تعريب لارصاد لالاند الفرنسى الذى كان رصده الاخير سنة 1773م 1186 - 1187هـ

وتقع الترجمة فى 3 مجلدات ضخام فى الحجم الكبير فيها تسعمائة وثمان وسبعون ورقة وفيها أربعة آلاف ومئتان وعشرون فصلا . وتشتمل على كثير جدا من الجداول والاشكال الهندسية .

(6) كشف الظنون ج 2 ضلع 1026 .

(7) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية . ج 4 ص 157 (8) ص 217 (9) ص 434 .

قاموا بدراستها . (بعد لقاء هذه المحاضرة أخرجت المطبعة كتاب (الزاوية الدلالية ودورها الدينى والعلمى والسياسى) للاستاذ محمد حجي ، وما زلنا ننتظر تحقيقه لكتاب (البذور الضاوية) لسليمان الحوات) .

على أننا - مع هذا التاريخ الطويل الذي يزيد على ألف سنة ، ومع هذا الشمول لمختلف الموضوعات ومع هذا الانتشار في مشارق الأرض ومغاربها شمالها وجنوبها .. ومع ضياع ما ضاع واختفاء ما اختفى - ما زلنا نحفظ - مع ذلك كله وكثير غيره - بالآلاف من المؤلفات المغربية ، ولدينا قليل من القوائم والدراسات التي تسمح بالحديث عن الكتاب المغربي حديثا يتضمن الخطوط العريضة الكبرى ، مثل :

كتاب النبروغ المغربي فى الأذنب العربى للاستاذ عبد اله جنون ، ومقالات الاستاذ محمد الفاسى عن تاريخ الأدب المغربى المبعثرة فى الصحف والمجلات والعلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين للاستاذ محمد المتونى ، ودليل مؤرخ المغرب للاستاذ عبد السلام ابن سودة ، وسوس العالمة للاستاذ المرحوم محمد المختار السوسى . والطب والاطباء بالمغرب للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله ، وتاريخ الأدب الجغرافى العربى للمستشرق الروسى كراتشكوفسكى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، والعلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى للعالم الايطالى آلد وميلى ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى ، وتراث العرب العلمى لقدرى حافظ طوقان وفهرس الفهارس والأبحاث لعبد الحى الكتانى .

الكتاب المغربى جزء لا يتجزأ من الكتاب العربى

والملاحظة البارزة الاولى التى تبده الباحث فى الكتاب المغربى ، هي أنه وان كان يختلف عن الكتاب العربى فى المشرق ، فى أن له :

1) خطا عربيا خاصا مشتقا من الخط الكوفى القديم ، ويتميز بزيادة الحروف المعقودة على أحرف الهجاء العربى ، وينطق الفاء بواحدة من أسفل ، والقاف بواحدة من فوق . (راجع مثلا عبد الفتاح عبادة فى كتاب انتشار الخط العربى) (10) .

لمكان التخصيص على أسرار هذه العلوم ، وغذيانهم من جنى هذه الفنون بإطيب الطموم ، حتى أصبحت حضرتنا العزيزة كعبة للنجباء الحناق ، ومطافئ للعلماء من جميع الآفاق ، من كل عارف بالألسنة والاقلام ، منتهية لاكتساب الكمالات بالاستسلام ، فأمرناهم بتعريب الكتاب المذكور واخراجه من الظلمات الى النور ، فصرفوا كل عناية الى ذلك ، ودأبوا عليه أثناء الليل وأطراف النهار مدة مديدة ، مع معاناة أكيدة ، ومشقة شديدة .

وكل ذلك بمرأى منا ومسمع ، ومحضر لنا ومجمع ، تعرض علينا كل يوم مخرجاتهم فنبالغ لها بالثناء والتصحيح ، ونرجح منها ما هو ناع الى الترجيح ، حتى برز بحمد الله فى احسن الصور واجملها ، واتم الوجوه واكملها .

وهو مرتب الآن بمكتبة القصر الملكى تحت رقم 2682م .

ونذكر صديقنا الاستاذ عبد العزيز ابن عبد اله فى كتابه (تاريخ المغرب) (تحت الطبع) أن القنصل الفرنسى لوكونت دوسكواط ، تحدث عن الامام الملك محمد الرابع باللغة الفرنسية وقيامه بتعريب بعض الكتب العلمية مثل كتب نيوتن ، فى علم الفلك ، على يد ترجمان انجليزى من مالطة أعتنق الاسلام .

وقد أكد ذلك عام 1871م (1288هـ) وزير فرنسا بطنجة طيسو .

فكم من جهود يجب أن تتوفر - يا ترى - على دراسة هذا التراث الضخم فى مختلف العصور ؟ ومقارنته بغيره ؟ قبل أن نستطيع تقييمه تقييما نزيها لا تحيز فيه ولا اجحاف ؟ نعم أننا قد بدأنا السير فى تحقيق هذا الهدف الوطنى ، وخصوصا بعدما أنشئت شهادة الدراسات العليا بجامعة محمد الخامس .

فقد أوليت عناية خاصة لتوجيه اهتمام طابقتى من حملة شهادة الاجازة الى الاعتناء بتحقيق مخطوط مغربى، واقترحت على بعضهم مخطوطات معينة لدراستها ، وقيد نال البعض منهم شهادته بالفعل ، ولكن مما يؤسف له أن المطبعة لم تخرج لحد الآن شيئا من المطبوعات التى

(2) وترتيباً للحروف يختلف عن ترتيبها في المشرق .

(3) وأرقاماً عربية خاصة هي غير الأرقام الهندية المستعملة عند عرب المشرق بل أن الموثقين بفاس لهم أرقام أخرى غير النوعين السابقين يؤرخون بها الوثائق والمعقود . وكثيراً ما تؤرخ بها المخطوطات وتسمى بالقلم الفاسي . وقد خصت بالتأليف مثل كتاب أبي العباس ابن البنا المراكشي (في أعمال الحساب والزمام) وبآخره رجز في ذلك . ورسالة غير منسوية (في أشكال الزمام والعمل به) وبأولها نظم في الموضوع (II) ومنظومة الإمام أبي السعود الفاسي في 30 بيتاً ، وقد شرحها أبو العباس سكيرج في (إرشاد المتعلم والناسي ، في صفة أشكال القلم الفاسي) ذكر فيه أن هذا القلم مأخوذ من القلم الرومي ، وهو مطبوع على الحجر بفاس في ثلاث رقات كما ترجمه إلى اللغة الفرنسية فيللا E. Viala بعنوان الخيط انفاسي L'exposé des signes de Fès وقد طبع بالجزائر سنة 1917 .

فإن الكتاب المغربي في صميمه وعمقه - رغم هذه الاختلافات - جزء لا يتجزأ من الكتاب العربي .

نلك أن المغرب - وأن كان قد انفصل سياسياً عن الخلافة الإسلامية بالمشرق في عهد مبكر ، وأنشأ له خلافة خاصة ، - فإنه - من الناحية الثقافية - قد بقي يكون مع البلاد ذات الثقافة العربية في آسيا وإفريقيا وأوروبا وحدة ثقافية متينة المرى متداخلة الأجزاء ملتحمة الأطراف متشابهة الفروع والاعصان .

وهكذا كان الكتاب العربي ، من الحجاز ، أو اليمن ، أو العراق ، أو ما وراء النهر ، أو بلاد العجم . أو الهند ، أو ألسند ، أو بخارى ، أو جاوة ، أو بلاد الروم (الترك) أن الشام وفلسطين أو مصر ، أو صقلية ، أو المغرب الأدنى ، أو المغرب الأوسط ، أو الأندلس ، أو السودان المغربي على اختلاف أقاليمه وأقطاره ، يجد مكانة - إلى جانب الكتاب المغربي - في المكتبات المغربية ، في المساجد والمدارس ، والربط ، والزوايا وفي قصور اللوك والأمراء والوزراء ، والرؤساء ، وفي بيوت العلماء والأسر العلمية ، ويتداول بين أيدي القراء في فاس ، وتازة ، ومكناس ، وزرهون ، وسبتة ، وطنجة ، وتطوان ، ووازان ، والريف ، والجبل ، والشاون ، والمزمة ، والقصر الكبير ، وسلا ، والرباط ، وتادلا ،

(11) رقم ك 1061 بالخزانة العامة بالرباط .

وبكاله ، وأسفى ، وأغمات ، ومراكش ، والسلا ، ورودانة ، وآيت عياش ، وسجلماسة ، وفيكيك ، والقنادسة ، وكرزاز ، وككزيم بوانى الساوره وسالى ، وتيميمون ، والركان ، وكنته بتوات ، وتامكروت ، وشنقيط ، وطنطان ، والساقية الحمراء ، وولاته ، وغيرها من مختلف المراكز العلمية الأخرى بالمغرب ويتناول فيها بالنسخ والزخرفة ، وبالطبع بعد أن دخلت المطبعة إلى المغرب ، وبالدرس ، والشرح والتعليق ، والرواية ، والنقد أو التقرض .

كما كان الكتاب المغربي من جهته ، ينتقل إلى مراكز لثقافة العربية في المشرق والمغرب ، فيحتل مكانته بين الكتب العربية الأخرى ، مما جعل الكتاب العربي في جملة يكون وحدة متكاملة ، لا يكاد جزء منها يستغنى عن بقية الأجزاء الأخرى وبذلك تحققت وحدة الثقافة العربية على أتم الوجوه .

ويمكن للمرء أن يتتبع هذه الحقيقة التي أشرنا إليها في كثير من المصادر والمراجع وعلى الأخص في كتب التراجم والفهارس والرحلات وما أشبهها . وفي كتب الدراسة بالمغرب ، ما بين متون وشروح وحواش وفي الكتب التي يتدارسها أصحاب الطرق المختلفة فيما بينهم ، وفي أورادهم وأحزابهم وفي كتب المظالمة ، وفي المطبوعات المغربية وفيما نشره المغاربة من كتب خارج المغرب وكذلك في الموسيقى والشعار التي يتغنى بها الآليون والمسمعون ليجدها في كل تلك بارزة للعيان بكل وضوح .

المجاورات العلمية :

ومن ذلك هذا الحوار الذي كان مستمرا بين علماء المغرب والعلماء العرب في المشرق والمغرب العربيين . ومن أمثلة ذلك ما وقع في القرن الحادي عشر الهجري بين الكوراني الشهروزي نزيل المدينة المنورة وبين علماء فاس .

فقد ألف في تصحيح قصة الغرائيق الشهيرة رسالة (اللمة السنية ، في تحقيق اللقاء في الامنية) فرد عليه أبو عبد الله بن أبي السعود الفاسي مبيناً بطلانها . فألف الكوراني (نبراس الايناسى بأجوبة أهل فاس) .

وقد عثرت في مكتبة القصر الملكي بالرباط ضمن مجموعة على رسالة كتبها أحد علماء المغرب (لم يسم في الرسالة) الى علماء مصر عندما احتلها الفرنسيون ينتقد عليهم رضاهم بالمقام تحت الحكم الاجنبى .

ولا يبعد ان تكون من انشاء العلامة المغربي الكبير الشيخ انجيلانى السباعى الذى نال في المغرب مقاما عظيما في العلم والدين ثم جاور بالحجاز ، فلما وصل الخبر باحتلال الفرنسيين لمصر صار يعظ الناس ويدعوهم الى الجهاد ، وقرا يلحرم كتابا مؤثفا في معنى ذلك فاتعظ جملة من الناس وركبوا معه البحر الى الصعيد المصرى وحاربوا الفرنسيين في عدة مواقع كما عند الجبرتي (12) ثم اعتل ومرض ومات يقرب مرضه ودفن هناك بقرية يقال لها احكاز (كما عند التهامى بن محمد الاويدى الحميرى في (اتحاف الخل المواطى) (خط) .

الامثال الشعبية والشعر الملحون

ونجد في الامثال الشعبية المغربية المتعلقة بالكتب نفس الظاهرة التى اشرنا اليها ، مثل قولهم :

مشى يقرأ بن السبكي ، وخلا الجرومية تبكي !
الى حب بقرا باننيا ، يقرأ سينى خليل والالفيا !
سينى خليل والرسالا . ما خلوا حتى مسالا

(يريدون رسالة ابن ابي زيد القيروانى)

الغزالي . ما يخلى قلب سالى !

بع الدار ، واشمرى لنكار . يريدون انكار النوى .
كما تجد ذلك في الشعر الشعبي (الملحون) ومن ذلك قصيدة (انحراز) لمحمد الامغارى حيث ياتى البطل اخيرا الى الحراز في صورة فقيه قارى للكتب المختلفة ، مثل لسنوسية ، والجرومية والالفية ، والموطا والبخارى والعينى ومسند احمد وخلييل والخرشى والزرقانى والرهونى والرسالة ، وبذلك خدع البطل الحراز القارى ببيان لحيال لكن انداز . كما يقول الشاعر في (الحربة) (الازمة) .

الكتابات المغربية خارج المغرب

وكما سد الكتاب المغربي الحاجة المحلية فى موضوعه ، متعاوننا على ذلك مع الكتاب العربى الوارد من خارج المغرب ، فان قسما مهيما من الكتاب المغربي تجاوز النطاق المحلى وانتشر خارج المغرب ليسد حاجة

كما الف الكوراني فى مسالة خلق الافعال محتجا لمذهب امام الحرمين ، رسالة كتبها برسم تلميذه الرحالة المغربى ابي سالم العياشي ، الذى اوردها بنفسها فى رحلته (ماء الموارد) (راجع ج I ص 360 و ص 429 - 443) .
فرد عليه ابو عبد الله الفاسي (راجع فى الخزانة العامة رقم 31154) والمهدى بن احمد الفاسى ، وسمى هذا زده (النبذة النيسيرة ، واللمعة الخطيرة ، فى مسالة خلقت الافعال الشهيرة) . راجع فى الخزانة العامة رقم 1234 ك .

وروجه المصريون اسئلة لفضيه فاس ابي عبد الله ابن الحسن بناني فاجاب عنها بجزء مطبوع وعند مرور الشيخ احمد بن العربي ابن الحاج الفاسى بطرابلس الغرب فى طريقه الى الحج سنة 1098 تلقى عنه بعض الطلبة بيتين لشيوخه الشيخ ميارة فى التفتين اذا تكررا ، فاطلع عليهما نونسي مر بطرابلس آتيا من مصر فانتقدهما وارسل احد انكياها الطلبة الطرابلسيين انتقاداته للشيخ ابن الحاج فاذن هذا لتلميذه محمد بن محمد بن حمدون بناني فكتب (الكوكب الساطع والعقد المنظوم ، فى بيان التعمين باعتبار النطق والمفهوم) (الخزانة العامة رقم 2008 د

28

وانكر مفتى مصر الشيخ محمد عبده التوسل فكتب الوزانى مفتى فاس فى الرد عليه (النصح الخالص) واقتى الشيخ محمد عبده باباحة اكل ذبيحة اهل الكتاب ولو خالفوا فى ذبيحة طريقة المسلمين . وقامت ضجة كبيرة فى المشرق ضده من اجل ذلك فاقتى الوزانى مفتى فاس بتأييد فتوى محمد عبده .

ونشرت جريدة ثمرات الفنون ببيروت كلاما للشيخ محمد عبده حول الجبر والاختيار فكتب احمد الرهونى التطوانى « تحرير المقال » .

ونشر بتونس متفقر من قسنطينة يقال له ابن مهنا رحلة الورتلانى وعلق عليها تعاليق طعن فيها فى المغاربة ، فالف الوزانى (السيف المسلول باليد اليمنى ، المقطوع به رأس مهنا) فعاد ابن مهنا والف (السيف المهند المسلول) وقال انه اختصره من رسالة كبرى التى شتم فيها الوزانى شتما فظيما !

ومن تلك المحاورات بين احمد البكباي السودانى وبين اكنسوس المراكشى حول الطريقتين القادرية والتجانية فى مؤلفات عديدة بعضها مطبوع .

(12) الجبرتي : عجائب الآثار 3 ص 44 و 57

ماسة في المراكز العلمية الاخرى ، وكذلك تحققت وحدة الثقافة العربية على اتم الوجوه .

ومن امثلة هذا القسم :

مقدمة ابن اُجروم الفاسى .

وكراسة الجزولى المراكشى فى النحو وشرح الكودى على الفية ابن مالك ، والشفاء للقاضى عياض السينى دفين مراكش ، وبقية مؤلفاته ، كالمدارك ، والمشارق والتنبيهات ، والاكمال ، والالمام ، وبقية الرائد والفهرسة .

وانوار اليروق فى تعقب مسائل الفروق لابن الشاط السبتي .

ومناهج التحصيل من نتائج لطائف التأويل (شرح المنونة لآبى الحسن على بن سعيد الرجراجى المعروف بابن تامسرى (ق7) .

وبيان الوهم والايهام ، الواقعين فى كتاب الاحكام لابن القطان الفاسى دفين سجلماسة .

ونزعة المشتاق ، للشريف الادريسي السبتي .

ورحلة ابن بطوطة الطنجى .

والقرطاس لابن ابي زرع الفاسى

ووصف افريقيا للحسن الوزان الفاسى المعروف عند الاوربيين بنيون الافريقى .

وجامع الميائى والغايات فى علم الميقات لآبى على

الحسن المراكشى .

والمعجب فى اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى نزىل بغداد .

ورحلة ابن رشيد السبتي دفين فاس (ملء العينية)

والذيل والتكملة لكتايبى الموصول والصله لابن عبد

الملك المراكشى .

وحاشية ابن الطيب الشرقى الفاسى نزىل المدينة

المنورة ودفينها على القاموس المحيط للفيروز باسى .

وكتاب ألوشاح ، وثنقيف ألرماح . فى رد توهم

المجد الصبح ، لعبد الرحمن بن عبد العزيز التابلى المننى .

وديوان صفرة الادب ، لآبى العباس الجراوى

التابلى الفاسى .

وارجوزة ابن الياسمين الفاسى فى الجبر ، ودلائل

الخيرات لابن سليمان الجزولى دفين مراكش .

وكتاب (المدخل) لابن الحاج الفاسى دفين

مصر .

والدرر اللوامع فى قراءة نافع لابن برى الرباطى

التازى .

ومورد الظمان للخراز الفاسى وشرح ابن عاشر

ورائية الشريشى السلوى المراكشى ثم المصرى .

وشرح ابن عباد الرنى ثم الفاسى على حكم ابن

عطاء الله السكندرى .

واحزاب آبى الحسن الشانلى المغربى دفين

مصر .

ومؤلفات ابن البنا المراكشى وخصوصا تلخيص

اعمال الحساب ، ومنهاج الطالب فى تعديل الكواكب .

ومؤلفات ابن غازى المكناسى ثم الفاسى وخصوصا

المنية ، والفهرسة ، وشفاء الغليل وتكميل التقويد

وحواشى البخارى .

ومؤلفات زروق الفاسى دفين ليبيا وخصوصا

شروح الحكم .

ومؤلفات على بن ميمون الغمارى دفين لبنان ،

مثل بيان غرية الاسلام على يد صنفى المتفقهة والمتفكرة

فى مصر والشام وغيرهما من بلاد الاعجام .

ومؤلفات محمد بن سليمان الرودانى نزىل المدينة

المنورة ودفين دمشق الشام وقد طبع بعضها فى الهند .

ومؤلفات محمد بن ادريس الميسورى دفين عسير

باليمن .

ونظم المرشد المعين لابن عاشر الفاسى وشرحه

لميارة . وشرح التاوبى ابن سودة الفاسى على تحفة ابن

عاصم الاندلسى .

وحاشية بنانى الفاسى على شرح الزرقانى على

مختصر خليل .

وحاشية الزهونى على كل من المختصر وشرح

الزرقانى وحاشية بنانى .

والابريز لاحمد بن مبارك السجلماسى .

وجواهر المعاني لحرازم برادة الفاسى .

والوسيط فى انباء شنجيت لاحمد الامين الشنقيطى

نزىل القاهرة .

ومؤلفات محمد محمود الشنقيطى نزىل القاهرة .

والاستقصا للناصرى السلوى .

وسلوة الانفاس لابن جعفر الكتانى .

والرسالة المستطرفة له .

واتحاف اعلام الناس لابن زيدان العلوى المكناسى .

والفكر السامى للحجوى الفاسى نزىل الرباط . والترتيب

وأمثلة هذا النوع تفوق الحصر وتستعصى على الاستقصاء ، ومنها :

- الغية ابن مالك الاندلسي دفين دمشق .
- وأوضح المسالك لابن هشام المصرى .
- وأم البراهين للسنوسى التلمسانى .
- ورسالة ابن أبى زيد القيروانى .
- ومختصر خليل المصرى .
- وشرحاه : للخرشى والزرقانى ، المصريين .
- وشرح الحطاب المكى .
- وتحفة ابن عاصم الغرناطى .
- ونظم أنسلم للاخضرى البسكرى .
- وجمع الجوامع لابن السبكى .
- وشرحه للمطلى ، وكلاهما مصرى .
- وتلخيص الفزوينى الشامى المصرى مفتاح العلوم للسكاكى الخوارزمى .

• وشرحاه لسعد الدين التفتازانى (من خراسان) : المطول والمختصر .

• وكشف الاسرار فى الحساب للقلصادى الاندلسى دفين تونس .

• والرسالة الفتحية فى الاعمال الجيبية لبط الماردينى المصرى .

- وحرز الامانى للشاطبى الاندلسى دفين مصر .
- وحكم ابن عطاء الله السكندرى .
- ويردة المديح للبوصيرى المصرى .
- وهمزته .

- وأربعون النووى الدمشقى .
- وصحيح البخارى دفين سمرقند .
- وشرحاه : فتح اليارى للعسقلانى المصرى .
- وارشاد السارى للقسلانى المصرى .
- وصحيح مسلم النيسابورى .
- وشرحاه : للنووى الشامى .
- والابى التونسى .
- وشعائل الترمذى الخراسانى .
- وموطا مالك المدنى .
- وشرح الزرقانى المصرى عليها .

الادارية لعبد الحى الكتانى .

• وفهرس الفهارس له .

- والنبوغ المغربى لعبد الله جنون الفاسى الطنجى .
- والنقد الذاتى لعلال الفاسى نزىل طنجة والرباط .
- وتاريخ الحركات الاستقلالية له .
- ودليل مؤرخ المغرب لعبد السلام ابن سودة

الفاسى .

• وغير ذلك كثير .

وذكر الشيخ عبد المجيد المثالى الزبائدى الفاسى فى (افادة المرتاد ، فى التعريف بابن عباد) ان رسائل ابن عباد الرندى ثم الفاسى لما بلغت لابي عبد الله البلالى المصرى صاحب اختصار الاحياء وغيره جعلها على رأسه وجعل يقول : أنا عبد لابن عباد ! (الخزانه العامة رقم (47I ونسخ اخرى) .

وذكر اليفرنى فى (الصفورة) (I) أن كتاب (نتائج التحصيل ، فى شرح التسهيل) لمحمد المرابط الدلائى الفاسى (ق II) لما بلغ القاهرة تناقسن فيه الطلبة حتى بيع بنحو عشرين ديناراً .

تقسيم الكتاب المغربى :

• ومكنا نستطيع ان نقسم الكتاب المغربى الى قسمين :

I القسم الاول الكتاب الذى الفه المغاربة فى المغرب أو خارجه ، سواء بقيت نسخه فى المغرب أو لم يبق الا خارجه .

• ويلحق بهذا القسم الكتاب الذى اقترح تأليفه ملوك وأمراء ورؤساء مغاربة على مؤلفين غير مغاربة ، سواء تزحوا عن بلادهم الى المغرب أو لم يصلوا الى المغرب بالمره .

2) والقسم الثانى الكتاب الذى انتقل الى المغرب من خارج المغرب ، فاحتفظت به المكتبة المغربية وتبينته ، واتخذته المغاربة كتاب دراسة ، ومراجعة ، وخدموه بالشرح والتعليق واعتمده فى الفتوى والقضاء والتوجيه والارشاد والوعظ ، وتولوا طبعه داخل المغرب وخارجه وكذلك ما انفردت به المكتبة المغربية ، ولم يبق له اثر فى وطنه الاصلى .

للكتاب المغربي طابعه الخاص

الملاحظة الثانية التي تلفت نظر الباحث في الكتاب المغربي ، هي أنه - ضمن وحدة الكتاب العربي والثقافة العربية - له شخصيته المتميزة وطابعه الخاص .

فهو - وقد فتح صدره الاستفادة من الكتاب العربي الوارد من مختلف الاقطار - استطاع أن يتفوق حيناً وأن يجمع بين محاسن تجربتين أو تجارب حيناً ، وأن يقوم بدور الحكم أحياناً أخرى .

ولم يكن الايمان العميق الراسخ للمؤلف المغربي بوحدة الثقافة العربية بين شرق العروبة وغربها ايمانا سلبيا يأخذ ولا يعطي ، ويتقبل كل ما يرد من خارج المغرب تقبل التقديس والتسليم من غير بحث ولا تمحيص ، بل كان على العكس من ذلك ايمانا ايجابيا يستفيد الى أقصى حد ممكن من الكتاب الوارد على المغرب مع اخضاعه للنقد والتمحيص والتهديب والترتيب .

فهو يختصر ما هو مطول ، ويهذب ويرتب ما هو في حاجة الى تهذيب وترتيب ويذيل ما يحتاج الى تذييل ، وينظم المنشور ليسهل حفظه ، ويشرح المقتن ليسهل فهمه ، ويحشى على الشرح ، ويتمقب ما يتوقف على تعقيب . ويجمع بين كتابين أو أكثر في كتاب واحد انا كان في كل واحد منهما ما ليس في الآخر .

فقد نقل المقرئ في (ازهار الرياض) عن تعليق لبعض أتلاخين :

ان صناعة التأليف انتهت في علماء المغرب على صناعة أهل المشرق لشيخ شيوخ العلماء في وقته ابن البنا الأزدي المراكشي في جميع تصانيفه (21) .

وان القدماء كان لهم اصطلاحان في تدريس المدونة : اصطلاح عراقى واصطلاح قرؤى - وبعدما أوضحهما قال : وقد سلك القاضي عياض في (تنبيهاته) مسلكا جمع فيه بين الطريقتين والمذهبين (22) .

ونقل الامام أبو اسحاق الشاطبي عن شيخه علامة فاس ومفتيها أبي العباس القياض أنه كان يقول : ان ابن

ومقامات الحريري البصرى .
والكشاف للزمخشري .
وتفسير ابن عطية الاندلسي .
وأحكام عبد الحق الاشبيلي .
والجامع الكبير للسيوطي .
واحياء علوم الدين للغزالي وشرحه للشيخ مرتضى الزبيدي المصري .

وكتاب سيبويه -
وديوان المتنبي .
والتسهيل لابن مالك .

وتحرير اصول الهندسة لاوقلينس تأليف النصير الطوسي .

وتاريخ ابن خلدون .

ومختصر ابن الحاجب الفقهى .

وشامل بهرام .

والقاموس المحيط للفيروز بادى .

وتهذيب اليرادعى لمدونة سحنون .

وكتاب التلقين للقاضى عبد الوهاب .

وقد كانت الكتب تصل الى المغرب بواسطة الرحالين من أهل العلم ، وخصوصا الحجاج ، وبواسطة مبعوثين خصوصيين يبعثهم الملوك الى اسبانيا ومصر واصطنبول لاستيراد الكتب بصفة خاصة ، وتتضمن كتب الرحلات والرسائل الرسمية اخبارا مستفيضة في هذا الموضوع ، كما تتضمن كتب التراجم اسما من أدخلوا كتباً معينة الى المغرب لأول مرة .

كمدونة سحنون (14) والنوادر ، والمختصر لابن أبى زيد القيروانى (15) ومختصر ابن الحاجب الفرعى (16) وشرح المرادى على الفية ابن مالك (17) ومختصر خليل (18) وشامل بهرام ، وشرحه على المختصر ، وحواشى التفتزاني على العضد وابن هلال على ابن الحاجب ، (19) وشرح الخرشي على المختصر (20) .

(14) محمد مخلوف : شجرة النور الزكية ص 3، رقم 263 (15) ابن فرحون : اليباج ص 163

(16) أحمد بابا : نيل الابتهاج ص 168 (17) ابن القاضي : درة الحجال ج 1 ص 688 (18) نيل الابتهاج : 292 درة الحجال 293 (19) نيل الابتهاج : 3، 6 (20) المهدي الوزاني : السيف السلول باليد اليمنى ص 8 طبع حجر بفاس

(21) ج 3 ص 23 (22) ج 3/21-22

بشير وابن شاش وابن الحاجب أفسدوا الفقه ويأمر أصحابه بالتحامى عنهم .

وقال احمد بابا السوداني في (نيل الابتهاج) :
ويذكر أنه لما حج اجتمع في تونس بابن عرفة فأوقفه ابن عرفة على ما كتب من مختصرة الفقهى ، وقد شرع في تاليفه ، فقال له القباب : ما صنعت شيئا ، لانه لا يفهمه المتنبى ، ولا يحتاج إليه المنتهى ! ويقال ان كلامه هذا هو الحامل لابن عرفة على أن بسط العبارة في أواخر المختصر ولين الاختصار (23) .

وكان الفكر المغربي انذاك لا زال لم يتسم بوباء الاختصار المخل الوارد من الشرق .

ولا يؤثر غيما أردناه من أيراد هذه القصة ما ألفاه عبد الواحد الونشريشى بخط والده ابى العباس ، ونقله المقرئ فى (أزهار الرياض) من أنها لا رأس لها ولا نذب قائلا عن القباب : وحاشاه من ذلك ! (24)

فقد قال الونشريسى : أن بعض القاصرين من طلبة فاس يقولون عن مختصر ابن عرفة الفقهى : ما يقول شيئا ! وان ملوك المغرب حبسوا بخزانتى القرويين والانلسيين من مختصر ابن عرفة نسخا عديدة ، ثم لا يمرج عليها للمطالعة احد من طلبة الحضرة (فاس) شتاء ولا صيفا (25) .

ومن الواضح أن انتقاد القباب فى القصة منصب على ما فى كلام ابن عرفة من تعقيد لا ينازع فيه أحد ، حتى قيل أن ابن عرفة نفسه لم يفهم بعض عباراته ، مثل تعريفه للاجارة فقد نكر الرصاع التونسي في (شرح حدود ابن عرفة) أنه وقف بخط بعض أشياخه من تلامذة ابن عرفة : أنه لما قرر نلك اللفظ بمجلس ابن عرفة أشكل فهمه عليه وعلى أهل مجلسه ، فافترق المجلس من غير جواب ، فلما كان من الغد نكر الشيخ أنه اهتم غاية الاهتمام ، وأنه فكر فى ذلك جالسا ومضطجعا فلم يذكر من نلك شيئا ، قال : فنويت أن أصلي ركعتين وأرغب إليه تعالى فى تيسير فهمه ، ثم فتح الله علي سبحانه بفهم قولى : بعضه يتبع بعض بتبعها ! (ص 393 طبع تونس)

ونقل عن الشيخ عيسى أن ابن عرفة فى آخر عمره كان يصعب عليه فهم كلامه (ص 394)

ونكر فى أول شرح الحدود عن كتب ابن عرفة :
« أن المبرز من فقهاء الزمان من يفك رموزها ، ويفهم اشاراتها ، ويتفاخرون بذلك ! » (26) .

وقد سمي ابن غازى كتابه (تحاف نوى النكاه والمعرفة ، بتكميل تقييد أبى الحسن وتحليل تعقيد ابن عرفة) .

وقال الفقيه المصرى المعاصر محمد سلام مذكور فى رسالته (المتأصدة فى الفقه الاسلامى) عن تعريف ابن عرفة للمتأصدة : وهذا التعريف المعتمد يشبه أن يكون نوعا من الرطانة ، ولا يكاد يفهم بدون ارشاد وايضاح ! (ص 9) .

أما من الناحية الفقهية فامامة ابن عرفة ومكانته ليست عند المغاربة محل نقاش أو خلاف .

ولكنهم شنعوا عليه تحامله على شيخه ابن عبد السلام الهوارى التونسي : قال الامام المسناوى الفاسى فى كتابه (صرف الهمة ، الى تحقيق معنى الذقة) بعدما أجاب عن اعتراض لابن عرفة على تعريف لشيخه ابن عبد السلام ما نصه : « وهذا ما لا يكاد يخفى على من دون الشيخ ابن عرفة من الاصاغر ، فضلا عن هو مثله من الائمة الاكابر .

غير أن رلوعه - رحمه الله تعالى - بمناقشة شيخه المذكور ، فى النقيز والقطمير ، وشغفه بمضايقته والانتقاد عليه فى الجليل والحقير ، كما هو معلوم من حاله لمطالع كلامه ، ومتأمل مقاله ، غطى عليه سندا اشراقه ، وأمر لديه حلو مذاقه !

حيك الشيء يعمى ويصم

ما ناك الا لمضمرات يعلمها العالم الرقيب !

وفى اجوية الامام أبى عبد الله القورى عن السبعة والعشرين سؤالا الواردة عليه من تلمسان من صاحب المعيار : أن الناس لم يسلموا لابن عرفة من اعتراضات على ابن عبد السلام الا القليل .

وما أحوجهما الى وضع كتاب أنصاف بينهما ، كما وضع بين الزمخشرى وابن المنير (27) .

(23) ص 73 (24) ج 3 ص 35 (25) نفس المصدر .

(26) ص 3 طبع تونس .

(27) رقم 194 د بالخرانة العامة بالرباط

الحافظ أحمد بن عبد الملك اللبلى الظاهري الشهيد
(ت 549هـ 1155م) (29) .

استدرك عليه معاصره أبو عبد الله محمد بن عبد
الله بن طاهر الحسيني الفاسي المعروف بابن الصيقل
(ت 608هـ 1212م) أحاديث كثيرة في أكثر الكتب ، رأى
أن عبد الحق أغفلها ، وأنها أولى بالذكر مما ذكره عبد
الحق في (الاحكام) .

قال ابن عبد الملك المراكشي في (الذيل والتكملة) :
« دل ذلك على حسن نظره وجودة اختياره » (30) .

كما تصدى له الحافظ أبو الحسن ابن القطان على
ابن محمد الكتامي الفاسي نفين سجلماسة (ت 628هـ
1232م) في كتابه الحفيل : (بيان الوهم والايهام ، الواقعين
في كتاب الاحكام) فانتقد عليه : أحاديث أوردها ولم
يجد لها ابن القطان ذكرا ، أو عزاها الى مواضع ليست
فيها ، أو ليست كما ذكر ، وأحاديث أوردها على أنها
متصلة وهي منقطعة - وذكر ابن القطان لانقطاعها عدة
مدارك - وأحاديث أوردها على أنها موقوفة ، وهي في
المواضع التي نقلها منها مرفوعة ! وأحاديث أغفل نسبتها
الى المواضع التي أخرجها منها . وأحاديث أوردها على
أنها مرفوعة وهي موقوفة أو مشكوك في رفعها ، وأحاديث
أبعد النجعة في إيرادها ومتناولها أقرب ، وأشياء متفرقة
تغيرت في نقله - أو بعده - عما هي عليه ، ورواة تغيرت
أنسابهم وأسماؤهم في نقله عما هي عليه .

قال ابن الزبير في (صلة الصنة) عن (بيان الوهم
والايهام) : « وهو من أجل التواليف في بابيه وإن كان
لا يخلو من بعض تعسف وتحامل ! » (31) .

ونكر ابن عبد الملك المراكشي في (الذيل والتكملة)
أن قاضي فاس الحافظ ابن المواق : أبا عبد الله محمد بن
يحيى (ت 642) - 1244 - 45م له تعقيب على كتاب
شيخه أبي الحسن ابن القطان : (بيان الوهم والايهام)
ظهر فيه ادراكه ونبله ، ومعرفة بصناعة الحديث
واستقلاله بعلومه وأشرفه على علله وأطرافه ، وتيقظه ،
وبراعة نقده واستدراكه .

ومن ذلك ما ورد في كتاب (بيان غربة الاسلام ،
على يد صنفي المتفهمة والمتفكرة في مصر والشام ،
وغيرهما من بلاد الاعجام) لملي بن ميمون الغماري نزيل
تركيا والشام ودفين لبنان ، من كلام قاس جدا عن مؤلفي
بلاد الشام في عهده ، (910هـ 1504م) اتهمهم فيه بأنهم
لا معرفة لهم بقواعد التأليف أصلا ، ولا بالصالح والفاسد
منه ، بل يعمدون الى مطالعة الكتب ، فينقلون منها ،
على مقتضى فهمهم ، ويقيدون ذلك ، ولا يعرفون حقيقته
واصطلاحه ، ولا ما ينتج عن ذلك (28) أضربنا عن نقله
بنصه لطوله .

وقال الامام السنائوي في (صرف الهمة) عن شرح
الابى التونسي لصحيح مسلم : أنه شهير بعدم التحرير .

وقال عن شرح الرصاع التونسي لحدود ابن عرفة :
وكم له في شرح الحدود من محلول الكلام وساقطه ،
كما لا يخفى على ناقدته ومخالطه .

والله يعلم أنى لم أقل هذا مضمنا ، بل لافادة
الطالب علما .

وما عسى إذا ما قلت معتقلى

دع الجهول يظن الحق عدوانا

ومن الفكاهات التي يتندر بها في هذا المعنى ، أن
فقيها مغربيا - لعله الشيخ بناني دخل القاهرة ودرس
بالأزهر الشريف فوقع عليه أقبال كبير ، أثار حسد
شخص قليل الحياء ، حسب التعبير المغربي فسأل الشيخ:
لماذا لم يؤلف المغاربة كتابا دراسية خاصة بهم ، ويقوا
عالة على مؤلفات المشاركة فاستفز الغضب الشيخ المغربي
وأجاب : سئطهم اصلاح أخطائكم عن التفرغ لتأليف
كتب خاصة بهم .

والواقع أن ما قلناه عن وحدة الكتاب العربي
وتكامله جعلت كثيرا من الكتب غير المغربية لا تتم
الاستفادة منها الا بضميمة الكتاب المغربي اليها .

فهذا مثلا - كتاب (الاحكام) في الحديث ، لعبد
الحق ابن الخراط الاشبيلي دفين بجاية (581هـ - 1185م)
الذي بناه على (كتاب المنتخب المنتقى) لصاحبه ومفيدة

(28) رقم 2123 ك بالخزانة العامة بالرباط

(29) ابن الأبار : التكملة ج 1 رقم 162 .

(30) جزء الغربا . 97-98 ، (31) ص 132 طبع الرباط

قال ابن عبد الملك : « وقد عنيت بـ (الجمع بين هذين الكتابين) مضافين الى سائر احاديث (الاحكام) وعلى ترتيبها . (وتكميل ما نقص منها) فصار (كتابي هذا) من انفع المصنفات واغزرها فائدة ، حتى لو قلت : انه لم يؤلف في بابيه مثله لن ابعد ! (32) .

وسمى الحافظ ابن رشيد الفهرى السبتي دفين فاس (ت 721 هـ) 1321 - 22م في رحلته الحفيلة (ملء العمية) كتاب ابن المراق : (كتاب المآخذ الحمال ، عن مأخذ الاغفال في شرح ما تضمنه كتاب بيان الوهم والايهام من الاخلال والاغفال ، وما انضاف اليه من تنعيم واكمال) .

وقال : ان المؤلف تولى اخراج بعضه من المبيضة ، ثم اخترمته المنية ، ولم يبلغ من تكميله الامنية ، قال ابن رشيد : فتوليت تكميل تخريجه ، مع زيادة تتمات ، وكتابة ما تركه المؤلف بياضا (33) .

ولكننا مع الاسف لم يصلنا ، لا كتاب ابن الصيقل ولا كتاب ابن المواق ، ولا كتاب ابن عبد الملك ، ولا كتاب ابن رشيد ! وتلك صورة من نكبات المكتبة المغربية !

وهذا كتاب جمع الجوامع في الحديث للسيوطي المعروف بالجامع الكبير ، الذي قصد مؤلفه به استيعاب الاحاديث النبوية ، كما قال في خطبته ، ذكر الشيخ مرتضى الزبيدي في معجم شيوخه ان مجيزه الحافظ ابا العلاء انريس العراقي القاسمي (ت 1183 او 84 هـ) 1769 - 71 م لما قرأ الجامع الكبير استدرك عليه نحو عشرة آلاف حديث كان يقيدتها في طرة نسخته ، بحيث لو نقل ذلك في كتاب جاء مجلدا (34) .

وهذا كتاب (انوار البروق في انواء الفروق) لشهاب الدين القرافي الصنهاجي المصري ، الذي يعتبر أهم كتاب وصل الينا في القواعد والفروق في المذهب المالكي والذي تال عنه ابن فرحون في الديقاج : انه لم يسبق الي مثله ، ولا أتى أحد بعده بشيبه (35) .
تصدى له ابو القاسم ابن الشاط السبتي في كتاب

ادرار الشروق ، على انواء الفروق) قائلا عن القرافي : (انه ما استكمل التصويت والتنقيب ، وما استعمل التهذيب والترتيب) فوضع ابن الشاط كتابه مصححا لما اشتمل عليه كتاب القرافي من الصواب ومنقحا لما عدل به عن صوابه (36) .

وقد تلقى المالكية تعقيبات ابن الشاط بالقبول ، حتى قالوا : عليك بفروق القوافي ولا تقبل منها الا ما قبله ابن الشاط ! كما عند الشيخ الامير المصري المغربي الاصل في حواشيه (ضوء الشموع) على شرحه لكتابه (المجموع) في الفقه المالكي (37) .

وقال ابو سالم العياشي في رحلته : ان ذلك من المستفيض عند المتأخرين (38) .

وهذا مختصر خليل المصري الذي فتن المغاربة فتنه شديدة ، حتى انهم جعلوه احزابا كما حزب المسلمون كتاب الله ، وجعلوا محراب جامع القرويين محلا يتحلق حوله من يستظهرون مختصر خليل ، فيتلون منه قدرا معيناً كل يوم ، كما يفعل من يستظهرون (كتاب الله) ! بل ان الراتب الشهري لمن يتلون حزب المختصر ك ان يفوق راتب من يتلون حزب القرآن عشرين ضعفا !

ولكنهم لاحظوا عليه : انه لفرط الايجاز كاد ان يعد من جملة الالغاز (39) فوضعوا عليه عشرات الشروح والحواشي والتعليق وناهيك بالشرح الحفيل على معاملاته للفقير الكبير ابي علي ابن رحال ، في حوالي عشرين مجلدا ، اما العبادات فقد اكتفى عن شرحها بشرح الحطاب المكي .

وترجم (المختصر) الى الشلحة محمد بن علي الهوزالي وشرح الترجمة بالشلحة أيضا لحسن بن مبارك النتمرتي البوعقبلي .

ونظم (المختصر) بالعربية ابو القاسم الفييجيبي في (نظم الآلي الحسنان) (40) .
وكذلك اعتنى المغاربة باستيراد ما وضع على

(33) مل. العمية الجزء 5 الورقة 9 مخطوطة الاسكوريال

(32) جزء الغربا. 147-148

ونقله ابو سالم العياشي في رحلته (ماء الموائد) ج 2 ص 248-249 .

(34) فهرس الفهارس ج 2 ص 201 الاسكوريال ونقله ابو سالم العياشي في (رحلته) ج 2

(35) ص 64 (36) ص 4-3

(37) ج 1 ص 377 (38) ج 2 ص 270 (39) محمد الطالب ابن الحاج : الازهار الطيبة النشر في ذكر

المبادئ. العشر ص 179 (40) محمد المنوني : مكتبة الزاوية الحمزاوية ص 31

(المختصر) من شروح وحواش خارج المغرب وتعقيبها هي الأخرى .

فابن غازي اهتم في كتابه (شفاء الغليل . بحل مقفل خليل) ببيان أغلاط بهرام المصري في شرحه على المختصر -

وابن عاشر بالغ في (حاشيته على الشرح الصغير لنتقائي المصري) في الإنكار عليه .

وقال أبو العباس الهلالي في (شرحه لخطبة المختصر) : ومن أنكب التي لا يعتمد على ما انفردت به شرح العلامة الشهير الشيخ علي الاجهوري على المختصر ، كما ذكره تلميذه العلامة النقاد أبو سالم عبد الله العياشي في تاليفه (القول المحكم ، في عقود الاصم الابكم) وأشار الى ذلك في (رحلته) (4I) .

ومن مارس الشرح المذكور ، وقف على صحة ما قاله تلميذه المذكور

ثم قال الهلالي : وما قيل فيه يقال في شرح تلامذته وأتباعه من المشاركة كالشيخ عبد الباقي الزرقاني ، والشيخ ابراهيم الشبرخيتي والشيخ محمد الخرشى لانهم يقدونه غالبا .

هذا مع أن الشيخ عليا رحمه الله حرر كثيرا من المسائل أتم تحرير ، وقررها أوضح تقرير ، وحصل كثيرا من النقول أحسن تحصيل ، وفصل مجملات آيين تفصيل ... فشرحه كثير الفوائد لمن ميز حصبا من دره ، ولا يطويه على غره !

وقد سئلت بالجامع الأزهر من القاهرة عن شرح تلميذه الشيخ عبد الباقي الزرقاني فقيل لي : ما رأيك فيه ؟ فقلت لهم : لا ينبغي للطالب أن يترك مطالعته لكثرة فوائده ، ولا أن يقلده في كل ما يقول أو ينقل لكثرة الغلط في مقاصده (42) انتبى كلام الهلالي مختصرا .

وقد وضع كل من أبي علي ابن رحال ، والسلطان المولى سليمان ، والفقيه ابن عبد الرحمن والمهدي ابن سودة ، ويدر الدين الحمومي والمهدي ابن الحاج حواشي على شرح الخرشى .

كما وضع كل من الشيخين التاودي ابن سودة ومحمد بن الحسن بناني حواشي على شرح الزرقاني ، الذي قال عنه : انه كثيرا ما ينزل النقل في غير محله ، ويلحق الفرع بغير أصله (43) .

ثم وضع الشيخ الرهوني حاشيته على كل من المختصر وشرح الزرقاني وحاشية بناني .

قال الشيخ الطالب ابن الحاج في كتاب (الازهار الطبية النشر) : ولعمري ان كلا من هذه الحواشي الثلاثة قد أتى صاحبها فيها من التحريرات بالعجب العجيب ، وذلك مما لم يسهل للأكابر من المسائل اصلعاب (44)

وهكذا صار كلام بناني والرهوني هو القول انفصل في تحرير المذهب المالكي بحيث اذا نص خليل على حكم فقهي في مختصره الذي قال انه مبين لما به الفتوى ، ووافقه عليه الزرقاني تبعا لشيخه الاجهوري ، فانه لا يكون فقها مسلما الا اذا أقره بناني والرهوني ولو بالسكوت ، أما اذا اعترضاه فلا عبرة بكلام خليل والزرقاني !

ولا عجب في ذلك ، فقد عنى المغاربة بالدراسات الفقهية القانونية عناية فائقة ، قرون عديدة ، اذ كانت فاس تمثل المركز السادس من مراكز الدراسات المالكية ويشمل نفوذها الثقافي المغربيين الاوسط والاقصى ، كما عند مؤرخ المذهب المالكي محمد مخلوف التونسي في (شجرة أنور الزكية) (45) ولا يخفى أنه يقصد بالمغرب الاقصى ما يشمل الاقاليم السونانية .

وكلمة فقيه - عند المغاربة - تطلق على من يعرف القراءة والكتابة ، وعلى المعلم ، والمدرس ، والموثق ، وامام الصلاة ، والمحتسب ، والمفتي ، والقاضي ، والسفير ، والوزير ، ولا يفوقها من الفاظ التعظيم والاحترام عندهم الا كلمة شيخ ، التي تقال لشيخ الجماعة ولشيخ القرية الصوفية ، وكلمة شريف التي تطلق على من كان من مال البيت النبوي .

ولعل الميدان الفقهي القانوني بأقسامه المختلفة ، وفروعه المتعددة ، هو أهم ميدان تفوق فيه الكتاب المغربي تفوقا كبيرا لا من ناحية كثرة المؤلفات التي تفوق الحصر

(41) ج 2 ص 373 نقلا عن شيخه أبي بكر السكتاني المراكشي

(42) ص 7 الملزمة 10 طبع حجر بفاس

(43) هامش شرح الزرقاني ج 1 ص 2 .

(44) ص 180 (45) ص 103 .

فقط ، ولكن من ناحية الكيف ايضا .

فقد عرف الكتاب الفقهي المغربي - في الغالب - بالتحري في النقل ، والتعمق في البحث ، والاصالة في التفكير ، والاهتمام بمشاكل الحياة الواقعية ومحاولة إيجاد الحلول العملية المناسبة لها .

وذلك في نطاق المذهب المالكي الذي اختاره المغاربة لانفسهم مذهبا ، والتزموه وتعصبوا له ، وجمدوا عليه . ولم يسمحوا لغيره من المذاهب الفقهية الاسلامية بالوجود معه ، وتأثروا به في حياتهم وسلوكهم وتفكيرهم ، مما كان له آثاره المختلفة التي لا مجال للحديث عنها الآن .

ولم يكتب المغاربة بهذه الموسوعات الفقهية الكبرى ذات المجلدات الضخمة العديدة والتي يحاول أصحابها فيها أن يستقصوا أحكام جميع المسائل الفقهية سواء كانت واقعية أو مفروضة . مع إيراد نصوص الأقدمين وأختلافات الشارحين في فهمها ، والترجيح بين الفهم المختلفة .

بل انهم - الى جانب ذلك - اهتموا بالكتب التي تلتزم المسائل العملية الكثيرة الوقوع ، ومن ذلك - مثلا - شروح رجزية ابن عاصم الانللسي (تحفة الحكام) كميارة ، وابن سودة ، والتسولي الفاسيين ، وغيرهم .

ويمتاز شرح ميارة بالتحريير وإيراد نصوص الأقدمين ، الامر الذي يكسب الطالب الفة لتعابير الأقدمين واصطلاحاتهم ، ويسهل عليه بالتالي الاستفادة من أمهات الكتب الفقهية .

ويمتاز شرح ابن سودة بالاختصار والتحريير والاعتماد على آخر ما استقر عليه رأي فقهاء المالكية ، مما جعله كتاب نزاسة في القرويين والزيتونة بتونس وغيرهما .

ويمتاز شرح التسولي بالتحريير والاهتمام بالنوازل الواقعية والتوسع في الموضوع من غير افراط .

ومن الموضوعات الفقهية التي برز فيها الكتاب المغربي تبرزيا فائقا موضوع (النوازل) أو (الفتاوى) أو (الاجوية) فقد كان ملوك المغرب - مع أن الكثير منهم كان من كبار الفقهاء - يستفتون الفقهاء فيما يعرض لهم من مشاكل ويلتزمون ما يفتي به الفقهاء .

واستفتاء ملوك الدولة العلوية الفقهاء في مشاكل السياسة الداخلية والخارجية واحتجاجهم بغتاوى الفقهاء في مفاوضاتهم الدبلوماسية مما سارت بحديثه أركبان . كما كان بجانب القاضى مفت خاص يعين رسميا بظهير سلطاني يستشير القاضى في النوازل المهمة ، كما يستفتيه الناس في شؤونهم الدينية ، وكانت له بالقرويين مقصورة خاصة ، كما أن بها مقصورة للقاضى ، ومقصورة للخطيب وغريفة للموقت .

وكذلك كان المتداعون يستفتون الفقهاء في نوازلهم ، ويبلون بهذه الفتاوى للمحكمة لبيان احقية ما يدعون . ومع مرور الايام يجتمع للفقهاء عدد من الاجوية الصادرة عنه ، فتارة يجمعها بنفسه في كتاب خاص ، وتارة يجمعها غيره من تلامذته أو اولاده .

ومن ذلك مثلا كتاب (الدر الثبير ، في اجوية ابي الحسن الصغير) و (الاجوية الكبرى) و (الصغرى) لابي السعود الفاسي (واجوية) المسناوى ، وابن سودة ، والمجاوى ، والعلمى ويريلة ، وابن هلال ، والعباسى ، وجنون ، وغيرهم .

وفى بعض الاحيان لا يقتصر الجامع على اجوية فرد واحد ، بل يتصنى لجمع اجوية كثير من الفقهاء المالكية على اختلاف بلدانهم وعصورهم .

ومن أشهر هذه المجموعات وأهمها وأفيدها كتاب (المعيار) لئونشرشسى التلمسانى نزيل فاس وعالمها ومدرستها ومفتيها ، فقد وقف بفاس فى مكتبة العلامة القاضى محمد بن الغرديس على فتاوى فاس والانللس ، وكانت مكتبته محتوية على تصانيف الفنون فاستعان بها ئونشريسى فى تأليف (المعيار) . كما فى فهرسة المنجور ، ونقله احمد بابا فى (نيل الابتهاج) (46) .

ومثل (النوازل الصغرى) و (النوازل الكبرى) المعروفة بالمعيار الجديد . للوزانى مفتي فاس .

هذا الى جانب عدد كبير من مخطوطات الفتاوى والنوازل ، من القسمين السابقين التى تزخر بها المكتبات المغربية وما زالت لم تطبع بعد .

ولعل الناحية الطريفة للكتاب المغربى فى الميدان الفقهي اثنى انفرد بها دون بقية الاقطار الاسلامية الاخرى .

في الخلاف بين مالك وأبي حنيفة والشافعي ، لأبي محمد
الأصيلي نزيل الأندلس (ت 372 هـ)

ومثل كتاب (تهذيب المسالك في نصره مذهب مالك)
تأليف يوسف ابن دقناس الفندلاوي - من ناحية فاس -
نزيل دمشق ودفينها ، الشهيد في الدفاع عنها عندما

هاجمها الصليبيون سنة 543 هـ في قصة رائعة
أوردتها ياقوت في معجم البلدان (48) عن ابن عساكر .

وقد أشار الفندلاوي في خطبة كتابه الى طول بعض
المؤلفات في هذا الموضوع ، وعدم انصاف مؤلفيها ،
قائلا : « ولما تجد في هذا الشأن منصفا ، أو خصما
بالحق معترفا ، فالف كتابه « موجزا مختصرا ، أودعه
أسرارا عجيبة ، وذكر ما لنا وما علينا ، معرا من اللجج ،
مؤكدًا بواضح الحجج ، على منهج العدل والانصاف فيما
بيننا وبين أصحاب الخلاف : أبي حنيفة والشافعي ،
حسب تعبيره ، ويقع في 130 ورقة .

ومن ذلك كتب فقه الحديث ، مثل كتاب المهدي الكبير
الجامع لمعاني السنن والاحكام ، وما تضمنه موطا مالك
من الفقه والآثار ، وذكر الرواة البررة الاخيار ، وكل ذلك
على سبيل الايجاز والاختصار ، تأليف أبي علي بن
الزهرا عمر بن علي العثماني الوريغلي من بني عمران
من أهل القرن الثامن للهجرة .

ويقع في واحد وخمسين مجلدا كبيرا ، لم يبق
منها الا عشرة اجزاء مفرقة في القرويين والخزانة العامة
بالبريات ومكتبة القصر الملكي ومكتبة ابن يوسف بمراكش
ومكناس والزاوية الحمزاوية .

وذلك مثل آخر من نكبات المكتبة المغربية التي
أشرنا اليها في أول هذا الحديث .

هذا - ولم يكن تفوق الكتاب المغربي في الميدان
الفقهي قاصرا على الفقه الاسلامي وحده ، بل انه تعداه
الى الفقه اليهودي أيضا .

فهذا اسحاق بن يعقوب الكوهن المعروف عند فقهاء
اليهود بالفاسي ، الذي ولد بقعة سلاس بالقرب من فاس
أوائل القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي

هي هذه الكتب التي تتضمن ما جرى به العمل في المغرب ،
مرتبا على أبواب المعاملات الفقهية ، مثل (نظم العمل
المطلق) وشرحه للسجلماسي الرياطي ، و (نظم العمل
الفاسي) لأبي زيد الفاسي ، وسروحه للنظام ،
والسجلماسي ، وأنيعمري ، والوزاني ، وجنون ،
وغيرهم .

فمنذ سجن فقهاء المسلمين أنفسهم داخل مذهب
واحد لا يتعدونه ، واجبتهم مشكلة تعدد الاقوال في
المذهب الواحد ، فحاولوا التغلب عليها باعتماد القول
الراجح أو المشهور ولكن هذا الراجح أو المشهور قد
يعارضه مرجح آخر ، كأن يكون فيه حرج ومشقة على
الناس أو يخالف أعرافهم وما اعتادوه ، فيلجأ الفقهاء
لمخالفة المشهور أو الراجح ، ويستندون الى قول آخر
ضعيف ، فيصبح بجريان العمل به أقوى من الراجح أو
المشهور .

وهي حيلة بارعة للتخفيف من وطأة الحلقة
الحديدية الخانقة التي وضعوها في أعناقهم عندما أغلقوا
باب الاجتهاد وسجنوا أنفسهم في قفص تقليد مذهب
واحد لا يتعدونه ، كما أنها من أفيد الوسائل في تطوير
الاحكام الاجتهادية .

ومع أن جمهور الفقهاء يأخذون بمبدأ الارتباط بين
احكام المعاملات وأعراف الناس ، فاننا لا نعرف عن غير
المغاربية أنهم توسعوا في ذلك الى الحد الذي ذكرناه .
وذلك مظهر من مظاهر واقعية التفكير الفقهي عند المغاربة ،
مما جعلهم يجدون الطول الاسلامية لكثير من المشاكل
المستعصية ، كما فعلوا - مثلا - في مشكلة السلف
بدون فائدة ، حيث كانت بقيسارية فاس دراهم موقوفة
للسلف . كما عند الشيخ التاودي ابن سوادة في (شرح
التحفة) (47) وهي سابقة تاريخية تفتح أفقا فسيحا
للتفكير من جديد في حل اسلامي صميم لاغوص مشكلة
تواجه النظام الاقتصادي الاسلامي في العصر الحاضر .

على أن الكتاب الفقهي المغربي لم يقتصر على
الناحية الواقعية العملية وحدها بل اهتم كذلك بالناحية
النظرية أيضا .

ومن ذلك الفقه المقارن ، مثل كتاب (الآثار والدلائل)

ودرس في القيروان ، ثم رجع الى فاس ، فانكب على دراسة التلمود وشروحه ووضع في فقه التلمود كتابا يقع في عشرين مجلدا استغنى به فقهاء اليهود عن الالتجاء الى مختلف الدراسات الاخرى المتعلقة بالتلمود وشروحه حتى اعتبره بعضهم بمنزلة تلمود ثان .

وخلف الى جانب ذلك مجموعة من الفتاوى باللغة العربية تشتمل على ثلاثمائة وعشرين فتوى .

وقد ترجمها الى العبرانية ابراهيم هاليوى ابو قراط . ولا زال بعضها موجودا بالعربية الى الآن . كما كتب باللغة العربية كتابا مطولا يتعلق بثلاث نقط فقهية موجودة في التلمود .

وفي الربع الاخير من القرن الخامس الهجرى الحادي عشر الميلادي ذهب الفاسي الى الاندلس حيث اقام في قرطبة ثم في غرناطة ، واخيرا استقر في اليوسلانة من اعمال قرطبة حيث أسس هناك معهدا للدراسات العليا التلمودية اشتهر اشتهارا كبيرا ، واهم الطلاب من كل الجهات ، وبقي هناك الى ان توفي اواخر القرن الخامس هـ اوائل الثاني عشر م .

ولا يزال الفاسي الى يومنا هذا معتبرا من اعظم الفقهاء المعتمدين لدى اليهود كما يتجلى ذلك بوضوح في كتاب (المقارنات والمقالات) لمحمد صبرى ، وهو الذى نفت نظرى اليه . وفي كتاب (العلم عند العرب ، واثره فى تطور العلم العالمى) للعالم الايطالى الدومينيلى .

حديث عنه (49) ثم كتب لى بتفصيل خبره استاذ يهودى من قدماء طلبتى بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط .

ونيس معنى هذه الفذلكة المختزلة المتسرة عن تبرز الكتاب المغربى فى الميدان الفقهى القانونى أن الكتاب المغربى كتاب فقه ليس الا ، فمع ما للميدان الفقهى من اهمية بالغة وقيمة كبيرة فى تنظيم حياة الامة وحفظ حقوق افرادها فائنا قد قدمنا أن الكتاب المغربى ساهم فى سائر الميادين التى ساهم فيها الكتاب العربى . وقدمنا أسماء طائفة من الكتب المغربىة فى موضوعات مختلفة تجاوزت فى القديم والحديث النطاق المحلى

ودخلت فى صميم التراث العربى العام . ويكفى أن تشير الى قول صاحب (كشف الظنون) عن (كتاب جامع المباسى والغايات فى علم الميقات) لابسى على الحسن المراكشى - وقد قدمنا ذكره - : وهو اعظم ما صنف فى هذا الفن ! (50) .

ويوجد الى جانب تلك الكتب كتب مغربية برزت فى مياديننا تبرزنا فائقا ، ولم تتيسر لها الفرص المناسبة لتنتشر خارج المغرب وتقدر هناك التقدير اللائق بها . ولكن المجال الضيق لهذا الحديث لا يسمح بالتوسع فى هذا الموضوع .

ولكننا قصدنا الى تجلية هذه الناحية الفقهية بصفة خاصة . لنلفت النظر الى ما امتازت به العقلية المغربىة من التبريز فى ميدان التفكير القانونى ، وما ينتظر منها من المساهمة المنتجة فى نهضة الفقه الاسلامى الحديثة فى جامعات مصر وسوريا ولبنان والعراق عندما تنحدر البلاد من احتلان القوانين الاجنبية التى وضعها اعداء البلاد اثناء فترة الاحتلال الاجنبى البغيض ، فى نطاق المخطط الاستعمارى الاجرامى لقطع صلة الامة بدينها القويم وماضيها المجيد ، وحضارتها وثقافتها وروابطها الفكرية الثينة مع بقية الاقطار العربىة ومحو شخصيتها وثمعتين الاغلال التى تمسك بخناقها فى حضيض الاستعمار الروحى ، وعار الاحتلال الفكرى ، وخزي التبعية الثقافية .

فمع ما فى بقاء هذه القوانين الاجنبية من امانة للامة ودوس لكرامتها الوطنية فان امة لها هذا التراث الفقهى الضخم والماضى القانونى المجيد ، لا يجوز أن تقطع صلتها بهذا الماضى المشرق الوضاء وتصبح عالة على اعدائها فى فقه يرجع فى اصله الى الوثنية الرومانية وقد طبعته المسيحية والالحاد للذان سيطرا على فرنسا فى حقبتين مختلفتين بطابعهما الخاص .

هذا ائى أنه لا يتصل بحياة الامة وعقليتها وطبيعتها وحضارتها .

وقد سبق لرائد الفكر الاسلامى الحديث الاستاذ الامام الشيخ محمد عبيد رحمه الله أن نبه الى الصلة التى يجب أن تكون بين ما يشرع للامة من قوانين وبين

احوال الامة وطبايعها وعاداتها وأخلاقها ، فرب قانون يلائم مصالح قوم لا يلائم مصالح آخرين فينفع أولئك ويضر بهؤلاء .

ونحن - وان كنا من غلاة المتطرفين في الدعوة الى الاجتهاد والاستقلال في التفكير ومسايرة التطور والتجديد ، والاستفادة من تجارب الامم المتقدمة في ميادين التنظيم والتسيير ، ومحاربة الجمود والتقليد والتعصب المذهبي ، ونعتبر ذلك شرطا أساسيا للانبعاث الاسلامي المنشود ، والقضاء على الرجعية والامعية والتخلف الفكري والكنسل العقلي - فاننا نريد تجديدا اسلاميا في نطاق الاسلام وفي دائرته ، لا تقليدا كغربا أجنبيا ، ومعانذ الله ان ننكر الجمود على ما قاله الائمة السابقون ونقبل انجمود على ما شرعه الاعداء الكافرون المستعمرون .

على أنه مما لا مجال للجدال فيه ان فقهاءنا في حاجة الى تقنين ، والى كتب جديدة يضعها فقهاء متخصصون في دراسة الشريعة الاسلامية ، متبحرون في معرفة مصادرها وأصولها ومذاهبها ، متمقون في أسرارها وحكمها وفلسفتها يعرضونه بلهجة العصر وأسلوبه وعقليته وروحه ويواجهون حاجياته المستجدة ، بعد أن لم تبق الكتب القديمة صالحة لسد هذا الفراغ .

ولنعد الى موضوع الكتاب المغربي فنقول : ان من الحق أن هناك كتباً مغربية لا ينطبق عليها ما قلناه عن الكتاب الفقهي ، من أن الغالب عليه التحرير ، والتحرى في النقل والتعمق في البحث والأصالة في التفكير ومن ذلك مثلا كتب المناقب والفضائل والغيبيات وما أشبهها ، فان الغالب على الكتاب المغربي فيها التساهل وعدم الاهتمام بالتحرى والنقد والتحميم ولو كان مؤلفه من كبار الاعلام .

على ان من الحق كذلك أن نقول أن ذلك ليس من خواص الكتاب المغربي وحده ، بل هي ظاهرة عامة في الكتاب العربي في هذه الموضوعات نبي الاغلب الاعم .

وقد كان من آثار حفظ الله للمغرب من الاحتلال التركي أن بقيت حالة اللغة العربية في المغرب سليمة فلم تصب بما أصيبت به في بقية البلاد العربية الاخرى .

قال الرحالة التونسي الشيخ محمد بيبرم في (صفوة الاعتبار) (511) : ولمعنى أن صناعة الانشاء في الدولة باللغة العربية كانت الآن أن تكون مقصورة على نولة مراكش . وأما غيرها من الدول العربية فقد تذبذبوا ، وكانت كتابتهم أن تخرج عن الأسلوب العربي ، بل صاروا لا يتحاشون عن اللحن والكلمات البربرية ، بخلاف كتاب المغرب ، وهذا يدينهم من قديم .

الزخرفة في الكتاب المغربي :

وكما اهتم المغاربة بموضوع الكتاب ، فقد اهتموا كذلك بمظهر الكتاب ، فكان لهم فن جميل خاص فيما يتعلق بنسخ الكتب وزخرفتها ، وتزيينها بالصور أحيانا ، وبالشكال الهندسية والذهب والالوان سواء في صلب الكتاب ، وهوامشه ، وأطرافه أو في تسفيره .

ففي مكتبة القصر الملكي بالرباط قطعة من كتاب في البيطرة لمؤلف مجهول . لا أول لها ولا آخر وهي بخط مغربي جميل ملون . وفيها أربع صور :

(1) تمثل فرسا بيضاء ، ملجمة . وسائسها فاتح فمها يقلب أسنانها .

(2) تمثل فرسا قهوية اللون بيضاء الاطراف ، مربوطة من حافرها الاول اليمين .

(3) تمثل فرسا بها برص

(4) تمثل حصانا قد أقفز على حجرة وراسها في يد سائسها ، وهي مشكلة الاربع ، وقد قبلت الفحل ولم تنفر منه أصلا . - والمباريات في وصف هذه الصورة الرابعة للمؤلف -

قال المؤلف : ويكون وراها في الورقة التي تلي هذه الورقة ، وهي نتاجها .

ولكن هذه الورقة التي أحال عليها غير موجودة في هذه القطعة ، وهي تحت رقم 6126م .

ومن هنا الكتاب أيضا قطعة أخرى فيها صورتان ملونتان جميلتان :

تمثل احداهما فرسا دهما أدخل بيطار في

رحمها متانة وهو ينفخ فيها . ويمسك بلجامها رجل جالس على مصطبة من جلد .

وتمثل الثانية حصانا أبيض يسقيه ببطار دواء في قرن بقرى طويل . وقد ارتفع البيطار فوق دكة ليصل الى فم الحصان والبيطار يرتنى قميصا مغربيا ودراعه مغربية فوقها كساء مخطط ، وفوق رأسه عمامة مغربية ، وهي تحت رقم I016 .

وأخبرنى كتيبى أنه كان يملك عدة كراريس من مخطوط مغربى فى البيطرة يرجع تاريخ نسخه الى حوالي أربعة قرون . وفيه صور كثيرة للخيسول فى أوضاع وأشكال مختلفة .

كما أخبرنى الاستاذ المنونى أنه يملك نسخة من كليلة ودمنة فى حجم كبير بخط مغربى ردىء مجدول ملون كتبت ثلثا سعيد بن العياشى ابن عبد السلام ، وبها ثمان صور غير متقنة لحيوانات .

وكان المستعرب الايطالى ليفى دلافيدا قد أوقفنى فى منزله بروما صيف 1959م على قطعة من قصة مصورة بعنوان (بياض ورياض) قائلا أنها المصور المغربى الوحيد بمكتبة الفاتيكان وهي قصة شاب اسمه بياض ، من أسرة كريمة من دمشق ساح فى البلاد وقابل فتاة اسمها رياض على شاطئ نهر يسمى طرطر فهم بها واصبأته محن وحرمان ، ويتضمن النص الاشارة الى ثلاث عشرة صورة ، حيث يذكر فى كل موضع عنوان الصورة التى تمثل منظر الحائثة التى يوردها ولكن لا يوجد بالنص الآن الا تسع صور وتمتد الأربع الأخرى ضائعة .

وقد نشرت الجمعية الاسبانية الامريكية هذه القصة مصورة عن الاصل الموجود بالفاتيكان بخطه المغربى الجميل . فى مطبعة جريدة الهنسى اليومية الامريكية فى نيويورك مع ترجمة اسبانية بقلم الدكتور ا.ر. نيكل سنة 1941 .

ثم اننى وقفت فى كتاب (الفن والفنانون المسلمون) لانطونيو غارسييا خاين على ثلاث صور من القصة المذكورة قائلا انها قصة اسبانية (52) .

وتحدث الدكتور جمال محرز فى كتيبه (التصوير

الاسلامى ومدارسه) عن هذه القصة على انها اندلسية . وقال انها من القرن اثنان الهجرى للميلاد (53) .

وفى كتاب (العز والمنافع ، للمجاهدين بالمدافع) الذى ألفه بالاسبانية ابراهيم بن احمد بن غانم بن محمد ابن زكرياء الاندلسى وترجمه عن الاسبانية ترجمان السلطان زيدان السعدي وأولاده احمد بن قاسم بن احمد ابن قاسم الحجري . حوالي ثمانين صورة تتضمن جميع أشكال المدافع وآلات الحروب القديمة على اختلاف أنواعها .

ويوجد بخط مؤلفه فى الخزانة العامة بالرباط (54) وفى تركيا ، وفى دار الكتب المصرية ، ومنه نسخة فى مكتبة القصر الملكى بالرباط (55) وكانت توجد منه نسخة بتقرويين ولكنها ضاعت .

وهذا الكتاب هو اول كتاب ترجم للعربية فى الموضوع ومنه تعلم ملوك تونس أعمال المدافع والبارود وآلات الحرب .

وذكر احمد تيمور فى كتاب (التصوير عند العرب) أن عنده (نزهة المشتاق) للشريف الادريسى وبه مصورات كثيرة (56) .

ونبذة فى هول يوم القيامة منقولة من ذخيرة المحتاج (مغربية الخط بها صورة خيالية لجهنم وأديتها وهي بالحمرة والسواد (57) .

قال : ولا يذهب عن الدهن تصوير الحرمين فى نلائل انخيرات . وما امتازت به بعض نسخها من الاتقان فى الزخرفة والتذهيب وقد أطلعنا على نسخ منها مشرقية ومغربية غربية الصناعة ، بالغة النهاية فى جودة التصوير والنقش (58) .

وفى الخزانة العامة.أزيد من خمس نسخ من جزء (ذخيرة المحتاج) عن المعراج الحسى وفيه صورة سدرة المنتهى ، وقلم القدرة النورانى - واللوح المحفوظ الربانى ، وصورة الجنان (59) .

هذا ما يتعلق بالتصوير فى الكتاب المغربى . وطبيعى فى مجتمع يهتم بالعلم والدرس وليس به مطابع ولا آلات للكتابة ، ان تزدهر النساخة بين الطلبة والعلماء والمثقفين .

(52) ص 48-49 (53) ص 43-44 (54) رقم ج 85 (55) رقم 2646 م (56) ص 45 (57) ص 45 (58) ص 59 (59) الأرقام ك 2776 ، ك 2768 ، ك 2764 ، ج 518 ، ج 510

(القردان) انه كان منها بفاس أواخر القرن 6 وأوائل 7هـ ، أواخر 12 وأوائل 13م أريعمائة حجر (61) فقد كانت صناعة نسخ الكتب صناعة رائجة يتعيش منها أقوام لهم خطوط جيدة ويحسنون تزويق الكتب وتذهيبها وزخرفتها أو يكلون التزويق الى من يحسنه . وكان بالقصر الملكي موظفون خاصون بالنسخ والتزويق .

وكان من كبار العلماء من لهم خطوط جميلة ويحترفون صناعة نسخ الكتب يتعيشون منها وكان الناس يتغالون في شراء ما ينسخه هؤلاء العلماء من كتب ، لانهم عرفوا بتحريرهم تصحيح ما ينسخون .

بل كان الملوك والامراء والرؤساء والاغنياء يمتنون بنسخ المصاحف وكتب الحديث والسيرة النبوية ، ويبايعون في زخرفتها تقريبا الى الله ، وتخليدا لاسمهم ومنهم من كان يوقفها على مكتبات المساجد ، وخصوصا الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى كما هو معلوم .

وفي مكتبة ابن يوسف بمراكش شذرات من مصحف على رق الغزال تحت رقم 433 كتبها سنة 604 عمر المرتضى آخر ملوك الموحدين في عشرة أجزاء ، وفي آخر الجزء الخامس صفتان مكتوبتان بالذهب محاطتان باطار مذهب ، وبعدها لوحة مذهبة ملونة ، وتوجد منه قطع بمتحف الادوية بالرباط .

وقد تحدث المؤرخون المغاربة والمشاركة من قدماء ومحدثين ، كابن خلدون والخطيب ابن مرزوق ، والمقرئزي وابن نباتة والناصرى ومخلص والمنونى عن مصاحف أبى احطسن المرينى الثلاثة التى كتبها بيده في رق الغزال ، بعدد من فنتيت المسك وعطر الورد ، وربما أضيف اليها في بعض الاحيان الزعفران الشعري ، وكل واحد منها في 30 جزءا ، وجمع الوراقين لتتعميقها وتذهيبها والقراء لضبطها وتذهيبها ، وصنع لها أوعية من الابنوس والمعاج والصنل فائقة الصنعة مفضاة بصفائح الذهب مرصعة بالجواهر والياقوت ، واتخذ لها أصونة الجند المحكمة الصنعة المرقوم أديمها بخطوط الذهب ، ومن فوقها غلافات الحرير والديباج وأغشية الكتان ، وأوقف نسخة منها بالحرم المكي ، ونسخة ثانية

وقد حدثنا على بن ميمون الفمارى بفين لبنان في (رسالة الاخوان من أهل الفقه وحملة القرآن) التى كتبها بصالحية دمشق سنة 915هـ 1519م . ووجهها لآخوانه بفاس : انه عندما كان بفاس - التى قال عنها انه لما أتى إليها من غمارة حوالي 867هـ 1463م وجدها روضة من رياض الجنة . - كان مولما بالنسخ . فنسخ في علم الفقه وفي علم الفرائض والحساب كتباً أمهات وشرحا ، وفى علم الشعر والقوافى أما وشرحا وفى علم التوحيد كذلك أما وشرحا ، وفى علم الهيئة ، وفى علم الوقت والتعديل ، والطلسمات ، وعلم الاوقاف وسر الحرف ، والبسط والكسر ، وشيئا من كتب اليونى ، والمسباحات ، وتجارب الفرس ، وغير ذلك (60) وقد اهتمت كتب التربية والتعليم المغربية - أو كتب آداب طالب العلم كما كانوا يسمونها بأداب النساخة وقواعدها مثل (قانون) اليوسى . ومنظومة (سراج طالب العلوم) للعربى المستارى وشرحها (طراز الذهب المرقوم) لوالدى أبى العباس أحمد بن جعفر الكتانى رحمه الله . وشرحها (الابتهاج) لشيخنا أبى العباس البلغيثى رحمه الله .

وفيهما يوصى الناسخ : بتجويد المداد وتحسين الحروف ، وتقويم أنسطور ، وتوفير البياض بين السطرين ، ولتفرقة بين خط المتن وخط الشرح ، وان يكتب بالحمرة تراجم الكتاب وما أشبهها وتغليظ الحروف ان اتحد اللون ، وياتخاذ سكين لبري القلم ويشر ما يقع فى الكتابة من زيادة حرف أو تحريف ، ويحذره من المبالغة فى ترقيق القلم ، ومن المحو والاكتثار من الضرب أى التشطيب ويأمره أن يصلح ما يجده فى الاصل المنتسخ منه من لحن ظاهر اذا كان عند الناسخ من العلم ما يؤمله لذلك ، وأما ما كان غير واضح فليكتب عليه (كذا) أو يترك محله بياضا حتى يعثر على اصل صحيح يعتمد عليه .

وأخبرنى الاستاذ العابد الفاسى انه وقف على رسالة من عصر السعديين في موضوع الاصباغ والالوان وأنواع المداد والاقلام التى يكتب بها كل موضوع على حدة .

والى جانب معامل الورق الكثيرة التى قال صاحب

(60) راجع في الخزانة العامة بالرباط الارقام : (1780 ق 95، لا 1052)
(61) ص 49 طبع حجر بفاس

على المسجد النبوي بالمدينة المنورة ، وثالثة على المسجد الأقصى بالقدس الشريف (62) .

وقد وقفت على ما بقي من أجزاء النسخة الثالثة بالمتحف الاسلامي بالقدس الشريف عندما زرته أول مرة أواخر سنة 1959م .

وفي الاسكوريال مصحف بخط المنصور السعدي كتبه بمحلول العنبر وماء الورد حسبما ذكر في آخره .

وقد اهتم المغاربة اهتماما فائقا بزخرفة وتذهيب وتزييق المصاحف الكريمة وكتب الحديث النبوي الشريف وخصوصا للصحيحين ، وكتب السيرة النبوية ككتاب الشفا لعياض ، وشمائل الترمذي ، والاكتفا للكلاعي وكتب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ككتاب دلائل الخيرات للجزولي وذخيرة المحتاج للمعطي الشرقي البجعي ، والامداح النبوية ، كبردة البوصيري وهمزته ، ولامية كعب بن زهير ، ووتريات البغدادي وما أشبه ذلك .

بل ان كتب القصر الملكي تجاوزت ذلك الى زخرفة كتب الطب والصيلة والهندسة والانب والتاريخ والكيمياء والرحلات وغيرها .

ومكنا تملك المكتبة المغربية ثروة ضخمة جدا من الكتب المزخرفة والمذهبة والملونة الرائعة ، تبلغ آلاف المجلدات ، وتعتبر من اعظم ذخائر الحضارة الانسانية على العموم .

وقد بقيت صناعة النساخة مزدهرة بالمغرب ، وعلى الخصوص بفاس ومكناس الى ما بعد الحرب العالمية الثانية .

وكنكك ازدهرت بالمغرب صناعة زخرفة الجلد ونقشه وتذهيبه وحفره ازدهارا كبيرا ، وكان بفاس - وما زال - سفارون ماهرون ، حتى أنف احمد بن محمد السفيناني رسالة في تفسير الكتب وحل الذهب ، كما كان بالقصر الملكي موظفون خاصون بذلك .

وقد اكتسب جلد الكتاب عند المغاربة الاحترام والتعظيم تبعاً للكتاب ، فجاء في المثل الدارج ، (على

وجه انكتاب تبايس الجلدة) أي تقبل .

ناهيك أن بعض اللغات الاوربية - كالفرنسية مثلا اشتقت من كلمة (المغرب) (ماروك Maroc وصف (مغربي) مجرداً عن ذكر الموصوف Maroquin مرانا به الجلد المستعمل للتجديد الجميل ثم اشتقت من الكلمة كلمة ماروكينوري Maroquinerie للدلالة على مختلف الصناعات الجلدية وعلى تجارة الجلد، والمكان الذي يصنع فيه ، وصاغت منها وصف (ماروكيني Maroquinier لصانع الجلد وبياعه .

وتلك احدي مظاهر تأثير الكتاب المغربي خارج المغرب .

ومن أبرز ذلك أيضا هذه الارقام العربية التي علمناها لاهل أوربا فاستبدلوها بارقامهم الرومانية واحتفظوا لها فيما بينهم باسم الارقام العربية .

وقد أشار القلقشندي في (صبح الاعشى) إلى أن كتابة الامم السودانية مثل مالي والتكرور وغيرهم هي بالخط العربي على طريقة المغاربة (63) .

ونكر عبد الفتاح عبادة في كتاب (انتشار الخه العربي) أنه تولد من الخط الفاسي خط جديد انتشر في جميع أنحاء السودان ، وذلك لانتشار الاسلام في تلك الاصقاع على يد اهل المغرب (64) .

وقال الدكتور حسن احمد يوسف السوداني في الكلمة التي القاها باسم الجمهورية السودانية في المؤتمر الاقليمي الاول بفاس للجان الوطنية العربية لليونسكو سنة 1958م : فائز المغرب في السودان واضح في كل مكان : علمه القديم يدرس في المساجد وأثره واضح في الحياة الدينية في كل نواحيها (65) وذكر صديقنا المرحوم الدكتور عبد العزيز امين عبد المجيد في ألغروحة الجامعية (التربية في السودان من أول القرن السادس عشر الى نهاية القرن الثامن عشر) : أن من كتب الدراسة في السودان (النيلى) : الاجرومية ، ومتن الخراز ، كما ذكر دلائل الخيرات ، ووظيفة الشاذلي وأحزابه والطرق الناصرية ، والتيجانية والاحمدية

(62) راجع مثلاً الناصري : الاستقصا ج ص 127-131
(63) ج 5 ص 298 (64) ص 76-79 (65) المؤتمر الاقليمي ص 71 طبع الرباط

أو الادريسية النسوية لاحمد بن ادريس الميسورى نزيل عسير (66) .

كما تحدث الاستاذ عبد المجيد عابدين المدرس بكلية الخرطوم الجامعية في كتابه (الثقافة العربية بالسودان منذ نشأتها الى العصر الحديث) عن أن المغرب كان منبعاً من منابع الثقافة الاسلامية في السودان ، بواسطة القبائل العربية المغربية (ص 40) وبواسطة العلماء المغاربة (ص 55 - 56) والطرق الصوفية : كالشاذلية (ص 64) وطريقة السيد احمد بن ادريس الفاسي بواسطة تلميذه محمد الامير غني الذي أرسله الى السودان فنجحت دعوته نجاحاً تاماً ، وبواسطة غيره من تلامذته الذين أخذوا عنه بمكة (ص 96-97) والطريقة التيجانية ، والرحمانية التي هي فرع من الدرقاوية ، والطريقة البدوية نسبة لسيد احمد البدوي الفاسي دفين طنطا (ص 98-99)

ونذكر لى صديقنا الاستاذ الصديق ابن العربي : أن المستعرب الفرنسي جان بيرك أخبره أنه لاحظ في مكتبتى المهدي والمرغيني بالخرطوم أن أغلب كتبها بالخط المغربي .

ومن رجع الى مؤلفات أهل تمبوكتو وسوكوتو مثلا ، مثل مؤلفات احمد بابا السوداني ، والشيخ المختار الكنتي ، وولده محمد وحفيده احمد البكاي ، وسلطان سوكوتو محمد بيلو بن السلطان عثمان انفويو الفلاني ونحوهما رأى الى أي مدى بلغ تأثير الكتاب المغربي في هذه الاقطار .

وفي رسالة (أفريقيا الغربية في ظل الاسلام) ، للاستاذ السوري نعيم قدامح النى عمل مدرسا للغة العربية في جمهورية غينيا سنة 1960 ، اشارات كثيرة الى أثر الثقافة العربية المغربية في افريقيا الغربية .

مثل انتقال حب المغاربة للنحو والصرف الى الافريقيين ، لان كثيراً من كتب النحو قد حملها الاساتذة العرب الى افريقيا الغربية فيما أدخلوه الى تلك الاصقاع (67) .

وأن أدراسات الاسلامية الابتدائية هناك تفنى المراحل العليا في تمبوكتو وفاس والقاهرة فيما إذا أراد

الطالب متابعة تحصيله (68) .

وإن التعليم في أول أمره كان محصوراً بالاساتذة العرب القادمين من شمال افريقيا ، وبعد مضي مدة تكونت طبقة مثقفة من الافريقيين تولت مهمة التعليم بعد أن تخرجت من المدامس العربية في المغرب ومصر (69) .

وإن فرنسا وبريطانيا رائدتي الاستعمار في افريقيا الغربية لم تستطعا تحويل أنظار الافريقيين عن فاس وتونس والقاهرة ومكة (70) .

- وذكر الشيخ محمد البشير النيفر التونسي : أن تونس ، بعد الحملة الاسبانية عليها ، سنة 1573م وحرق مكتبتها الاسلامية أعادت تجديد ثقافتها بالاستمداد من مصر ومن المغرب الأقصى .

وعندما زار جلالة الملك الحسن الثاني جامع الزيتونة العظم (يوم الاربعاء 4 شعبان 1384هـ 9 ديسمبر 1964م ارتجل بين يدي جلالة عميد كلية الشريعة بها صديقنا الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور خطاباً أشاد فيه بالدور العظيم الذي قام به علماء المغرب في تنوير الرأي العام التونسي ونشر المعرفة والثقافة العربية والعلوم الاسلامية بين التونسيين ، وقال :

إن كل شيء في هذه الجامعة يذكر بالمغرب فابن عاشر ، وميارة ، وابن آجروم والشيخ المكنسي وابن بري والخراز كلهم يذكرون التونسيين بالمغرب وأبو الحسن الصغير ، والتسولي ، والشيخ التاويبي ابن سودة ، ويناني والرهوني يذكرون بالمستوى العالي العلمي بالمغرب .

وإن خزائن هذا المسجد ومكتباته العلمية المشتملة على الآلاف من الذخائر العلمية لتذكر مطالعها بإجتهاد علماء المغرب في نشر الفكر والثقافة الاسلامية وتوسيع نطاق الثقافة العربية بهذه البلاد .

وقال الشيخ ابن عاشور : اننا مدينون في هذا الميدان للمغرب بكل شيء ، فنحن نقرأ القرآن بوقف الهبطي القاسي ، ونصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلاوة دلائل الخيرات للجزولي ، وننتفهم فضائل النبي

(66) ج 1 ص 154، 155، 156، 158، 242، 245 (67) ص 145 (68) ص 145 (69) ص 143 و 142 ت (70) ص 152

صلى الله عليه وسلم وما خصه الله به من مكارم الاخلاق بواسطة كتاب انشفا للقاضي عياض ، كما ان رواية علماء تونس الحديث كلها تتصل في القديم والحديث بعلماء مغاربة من عهد دراس بن اسماعيل وابي عمران الفاسيين .

ثم وضع بين يدي جلالته واحدا من عشرات الكتب النبوية والادبية التي يجد علماء تونس في مطالعتها متعة . وفي مراجعتها خير اداة لفهم العلم وتحصيله ، وهو مجموع يضم اربعة من مؤلفات السلطان محمد ابن عبد الله الذي كان صاحب مذهب كبير ومدرسة حديثة ممتازة (71) .

واما اثر الكتاب المغربي في مصر ، فنكتفي منه بذكر واحد يفنى عما عداه ، وهو ما حكاه الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فيما كتبه من ترجمته الشخصية ، عن نفوره من العلم في بدء طلبه له بتلقي شرح الكفراوي على الاجرومية وقضاه سنة ونصف لا يفهم شيئا ، لريادة طريقة التعليم . وفراره الى الشيخ درويش أحد اخوال ابيه الذي جاءه بكتاب وسأله ان يقرأ له شيئا منه لضعف بصره ، قال : « فدعيت طلبه بشدة ، ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ، ونفرت منه أشد النفور ، ولما وضع الكتاب بين يدي رميته الى بعيد ، لكن الشيخ تبسم ، ولم يزل به حتى أخذ الكتاب وقرأ منه بضعة أسطر . فاندفع الشيخ درويش يفسر له معاني ما قرأ بعبارة واضحة ، تغلب أعراضه فتغلبه وتسبقت الى نفسه .

وفعل في اليوم الثاني كما فعل في اليوم الاول ، أما اليوم الثالث فبقي يقرأ له وهو يشرح له معاني ما يقرأ نحو ثلاث ساعات .

قال : « ولم يات على اليوم الخامس الا وقد صار أبغض شيء لي ما كنت أحبه من لعب ولهو ، وفخخة وزهو ، وعاد أحب شيء لي ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم » .

وكان الكتاب الذي جاءه به الشيخ درويش ليقرأه له بخط مغربي دقيق (72) .

على ان التعرف بتدقيق على اثر الكتاب المغربي خارج المغرب ، يتوقف على ارسال بعثات ثقافية لمختلف البلاد لتقصي آثار الصلات الثقافية بينها وبين المغرب في مختلف العصور .

هذه نظرة خاطفة عن الكتاب المغربي وقيمه ، ينقصها كثير من التفصيل وضرب الامثلة وايراد الحجج والشواهد مما لا يتسع له الوقت الضيق المحدد لهذا الحديث بينما الموضوع شاسع الاطراف فسيح الجوانب يتسع الكلام فيه للمجذبات الضخمة العديدة .

وختاماً نتمنى من صميم أفئدتنا أن تتحرر بلادنا في القريب العاجل ، من وطأة الاستعمار الفكري وغار الاحتلال اللغوي ، وخزي التبعية الثقافية ، حتى يستطيع الكتاب المغربي العودة من جديد لمواصلته رسائنه الدينية والعلمية والثقافية والحضارية في الداخل والخارج ، كجزء لا يتجزأ من الكتاب العربي ، له طابعه الخاص وشخصيته المتميزة ، فنتحقق من جديد وحدة الكتاب العربي ، وبالتالي وحدة الثقافة العربية ، كما تحققت من قبل في القرون الخالية ، والأجيال الماضية وما ذلك على حمة ووطنية الأمة المغربية العربية المسلمة المكافحة ببعيد بحول الله .

محمد ابراهيم الكداني

(71) من المؤلف ان كتاب (سبعة ايام في تونس) أهمل تسجيل خطاب الشيخ ابن عاشور والجواب القيم الذي ارتجله جلالته (ص 55)
(72) محمد رشيد بزي : تاريخ الاستاذ الامام ج 1 ص 20-24 .